الجزء الرابع — السنة الرابعة



مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

الاسكندرية — يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٣ — ربيع اول سنة ١٣٢١

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

مشاهير الشرق

محمد عبدالله

مهدي الصومال الذي تحاربه انكلترا الان

لا نعرف شيئاً عن محمد عبدالله المهدي الذي ظهر في بلاد الصومال الاَّ ما تكتبه المجلات والجرائد الغربية عنه . ولكنَّ هذه الجرائد تصفه بصفات لا تخلو من المبالغة اذ تنسب اليه الجهل المطبق والتوحش والغش وتسميه « ملا المجنون » وهذا مما يصعب تصديقه . ذلك لان رجلاً يحرك الصومال ويجتذب قلوب اهلها اليه يلزم ان لا يخلو من صفات جليلة واخلاق مخصوصة تسهّل له هذا الاجتذاب واليك ما نقتطفه من اخبار هذا المهدي الجديد

﴿ بلاد الصومال ﴾ بلاد الصومال واقعة في شرقي افريقيا وهي في الخريطة عبارة عن لسان واسع عريض داخل نحو بحر الهند في جنوبي بلاد العرب يفصله عنها خليج عدن . وهي مقسومة بين اربع دول . القسم الاول لفرنسا ومنه اوبك وجيبوتي . والقسم الثاني

لانكلترا وهو يمتد من زيلع الى (بندر زياده) والقسم الثالث للحبشة وهو يمتد من جنوبي هرر الشرقي الى جنوبي القسم الانكليزي . والقسم الرابع لايطاليا وهو ما بقي من هذه البلاد اي كل الشاطيء من بنادر الى جوبه فضلاً عن رأس اللسان الداخل في البحر . الا ان ايطاليا لم تحتلّ قسمها بعد .

﴿ اهل الصومال واخلاقهم ﴾ ويزعم سكان الصومال انهم من اصل عربي . وهم شديدو الافتخار بهذا الاصل . ولقد كانوا ذا حق في هذا الفخر لو كانوا من نسل عربي حقيقة . ولكن الحقيقة انهم من نسل غالاسي امتزجوا بالعرب بعض الامتزاج حين الفتوحات العربية في افريقيا . واخص قبائلهم ثلاث : الاولى بنو جحي والثانية بنو حاوية والثالثة بنو رهانوين . وجميع ما بقي من القبائل تشتق من هذه القبائل الثلاث .

وكل واحدة من هذه القبائل يحكمها زعيم تارة يسمى « سلطان » وتارة يسمى « جراد » (كذا) وهم قوم على البداوة والفطرة كبار الاجسام يغلب على جلودهم السواد مشوبًا بالحمرة . وشعورهم سوداء خشنة متفرقة ونساؤهم يجمعن شعورهن على رؤوسهن بشيء شبيه بالكيس فلا يظهر منها شيء . وهن سافرات الوجوه لا يحتجبن . ويشاركن الرجال في كل اعمالهم حتى الحرب والقتال كما كان نساء العرب في القرون الماضية . اما زينتهن فهي الاقراط للآذان والعقود من الخرز والاساور في العضد وفي اليد . وهن يلتففن بقطعة طويلة من النسيج ويبرزن عاريات الصدر والذراعين كالديكولته عند نساء العصر . . اما الرجال فلا زينة لهم سوى بضع آيات قرآنية مكتوبة وملفوفة بقطعة جلد ومعلقة باعناقهم . وهم يلتفون بقطعة نسيج كما تصنع النساء . ولهذه القبائل الرحل جوامع ثابتة قرب الشاطيء مبنية بالحجر وبعضها مموّه بالكلس (الجير) . غير انهم في رحلاتهم يبسطون قطعًا من الجلود ويحيطونها بدائرة من الحجارة ويصلون ضمنها

﴿ ظهور المهدي محمد عبدالله ﴾ هو شاب في الثانية والثلاثين من عمره ولد من ابوين كانا يرعيان المواشي في اوغادن من بلاد الصومال ولكنه ربي بين قبائل الدناقلة . ولما بلغ سن الرشد اخذ على ما يقال يتعلم شيئًا من الشعوذات التي تدهش العوام فكانوا يجتمعون عليه لمشاهدتها ويعجبون بقوته . وبعد ذلك درس القرآن على بعض مدرسيه في الصومال وحجّ اربع مرات فصارت له مكانة سامية بين قومه . وكان محمد عبدالله مطبوعًا على حب السيادة والسلطة فاتخذ مكانته هذه ذريعة الى مقاصده . فحاول اولاً الوعظ في بربره بين القبائل النازلة على شواطىء خليج عدن ليدعو الناس الى المعروف وينهاهم عن

المنكر فانكرت عليه القبائل ذلك ولم تبالِ به . فعلم ان داخلية البلاد اكثر استعداداً لعمله من شواطئها فدخل الى النوجل حيث تقيم قبائل الدليهنتي . واخذ يدعو الناس الى سبيل الله بكلام فصيح وحماسة وجرأة فاعتقدوا انه مرسل اليهم والتفوا حوله يصغون الى وعظه وارشاده

ولما صدقوا دعوته وكثر انصاره ركب معهم وقصد قبائل بربره التي نبذته للجهاد فيها عقاباً لها على تكذيبه . ومن هنا ابتدأت رغبته في الاستيلاء على كل بلاد الصومال واخضاع مكذبيه ومقاوميه للاستئثار بها . فاضطرت انكلترا الى حماية مستعمرتها من هولاء الغزاة الاشداء الذين هاجموها بحماسة غريبة وفتكوا بقبائلها فتكاً ذريعاً . فارسلت في سنة ١٨٩٩ الى بربره حملة من الهند لمساعدة الحامية الانكليزية . فرأى المهدي من الحكمة حينئذ ان يخرج من الاملاك الانكليزية فعاد الى اوغادن واستثار قبائلها الصومالية وغزا بهم املاك الحبشة قاصداً هرر . فحشد الرأس ماكونين جيشاً عظيماً ولقيه به بين « جدججا » « وململ » فهاجم الصوماليون الاحباش مهاجمات هائلة ولكنهم لم يستطيعوا ان يدحروهم فعادوا عن الحبشة بعد ان قتل منهم الفا رجل . ولكن هذا الرجوع لم يؤثر في نفوذ المهدي فعاد وساق قبائله على الاملاك الانكليزية في عام ١٩٠١ فلقيه الكولونل سوين وهزمه . فلجاء المهدي حينئذ الى اراضي الصومال الايطالية . ومع ذلك فقد بقي يدعو الى الجهاد لطرد الاجانب من البلاد ومعاقبة الصوماليين الذين حالفوهم . ورغبة في تقوية سلطته حالف سلطان ماجورتين وتزوج بابنته فاتسع سلطانه واشتدت قوته . واضطرت ايطاليا ان تطلق مدافعها من الشاطيء على قرى هذا السلطان لانه كان يهرب الاسلحة للمهدي .

وفي سنة ١٩٠٢ عاد المهدي الى الاراضي الانكليزية فلقيه الكولونل سوين بجيش من الهنود الانكليز والصوماليين . لكنه اضطر ان يعود عنه بعد ان قُتل ٧٠ من رجاله . فكان لهذا الفشل دوي عظيم في بلاد الصومال . وفي هذا العام اتفق الانكليز والايطاليون والاحباش على مطاردته فلم يفلحوا وانتهى الامر بانكسار حملة انكليزية كانت مسوقة عليه . فعزَّز هذا الانكسار منزلة المهدي تعزيزاً عظيماً . ولكن كل آماله لا تغني عنه فتيلاً لانه سيقع في خاتمة الامر اسيراً في يد مطارديه ويُنفى من بلاده ان لم يُقتل في ساحة الحرب كما قُتل التعايشي

ويقدرون اليوم قوات هذا المهدي باكثر من ٣٥ الف جندي



ننشر في هذا الباب كل ما نهم مطالعتهُ من المقالات الفلسفية والعلمية والادبية والتاريخية والعمرانية مما لا يدخل في باقي ابواب المجلة و يكون جامعاً لطلاوة الجديد وفوائد المفيد

الكاتب الشرقي وحاجاته الجديدة

لكل عصر حاجات . ولو كان العصر اليوم كعصر الهمذاني والزمخشري وابن المقفع والمتنبي لما كان لاحدٍ ان يذكر للكتّاب حاجات جديدة . فان الهمذاني كان يزور خراسان مثلاً فينشد بضعة ابيات ويكتب بضع رسائل فيعود مملىء الاردان . والمتنبي كان يقول قصيدة واحدة فيعطى من اجلها الوف الدنانير . ومتى كانت سوق الادب رائجة الى هذا الحدّ فذلك دليل على وجود الاتفاق التام في اذواق القائلين والسامعين

ولو ان العصر بقي كما كان في ايام من اشرنا اليهم لجاز ان يقال لادباء اليوم : تحدوا سابقيكم واقتدوا بمتقدميكم . وحينئذ كان هذا الاقتداء امرًا معقولاً مقبولاً . ولكن العصر قد تغيرَّ من حسن الحظ . ولم يعد المقصود من الادب وصناعته مدح الملوك والامراء او العظماء بل صار يُقصد به امر اسمى من هذا كثيرًا : ونريد بذلك تكوين الامم وتكبير نفوسها وانهاض ضعفائها وترقية شؤونها

كان المتنبي لا ينظم شعره الا لممدوحه وطبقة الشعراء والمتأدبين . وكان يظن ان هؤلاء الشعراء والمتأدبين هم الدنيا كلها بدليل قوله « اذا قلتُ شعرًا اصبح الدهر منشدًا » — مع ان هؤلاء الشعراء والمتأدبين كانوا جزءًا صغيرًا من الامة . اما اليوم فالكاتب العصري عليه ان يكتب لمجموع الامة كبارًا وصغارًا . اغنياء وفقراء . رجالاً ونساء . تجارًا وصناعًا وزراعًا وادباء . اي ان الادب والعلم افلتا من قيدهما القديم الذي كان يحصرهما في طبقة واحدة لغرض التسلية والطرب واندفعا نحو جميع الطبقات لاغراض عمومية يقصد بها فوائد ادبيــة وعملية . فنتج عن ذلك ان رواج الادب لم يعد متوقفًا على طرب

امير كسيف الدولة ولا على جود الملوك والخلفاء . بل على تاثير اقوال الكاتب في الجمهور الذي صار السيد الحقيقي على الادب والادباء . فوظيفة الكاتب اذًا ان يُحسن التأْثير في نفوس هذا الجمهور

وان قيل ان الملوك والامراء قد يؤْثرون اعظم تاثير في ترويج الادب لمساعدتهم اهله . فنجيب ان هذا القول صحيح متى كانوا يقصدون بمساعدتهم لهم مجرد انماء مواهبهم لتنتفع الامة بها . ولكن اذا كانوا يقصدون بذلك تقييد تلك المواهب بهم لتنشر نور مجدها عليهم وعلى اعمالهم بالمدح والثناء فان الحال تتغير تغيراً عظيماً خصوصاً متى كانت مصلحة الملك مخالفة لمصلحة الامة . ذلك ان صاحب تلك المواهب لم يعطَ مواهبه من الله ليجعلها وقفاً لفرد واحد ولو كان ملكاً بل اعطيها ليخدم بها جميع بني جنسه . فاذا خطر له وقفها على واحد او جماعة او طائفة او مذهب دون غيره فانه بذلك ينقض العهد الذي اعطاه على نفسه وهو في بطن امه حين اخذ تلك المواهب عن طريق الطبيعة من يد العناية الالهية . وحينئذ يقع بين نارين اما دوس مصلحة الامة من اجل مصلحة ملكها واما ترك الملك وقيوده الذهبية مختاراً عليها معيشة الفقر والحرية مع الامة . ولا ريب في ان اولئك الكتاب والشعراء المتقدمين الذين كانوا يتزاحمون على ابواب الخلفاء والامراء و يتنافسون في اطراء ممدوحيهم و وضعهم احياناً في مرتبة الالهة ليستدروا منهم الوف الدراهم والدنانير ـ تلك الاموال التي كانت مأْخوذة من دماء الشعوب والامم بطرق مختلفة ـ لو علموا انهم وُجدوا لمساعدة الشعوب والامم لا لمساعدة ملوكها على ابتزاز اموالها ومشاركتهم بعد ذلك فيها بطرق تشبه طرق الشحاذة لعلموا انهم اضاعوا مواهبهم في غير وجوهها ولم يأْكلوا مالاً حلالاً .

ومتى ثبت ان اول اغراض الادب والعلم ترقية الامم وانهاض الشعوب ترتب علينا ان نعلم حاجات الكاتب الشرقي الجديدة في هذا العصر .

الحاجة الاولى وعندنا ان اولى حاجات الكاتب «الجرأَة والحرية» ونريد بذلك حرية الفكر والنشر . وتحت الحرية تدخل فضائل كثيرة . فانه متى كان الكاتب يكتب بحرية واستقلال فكر فانه يكون صادقاً منصفاً عادلاً قليل الشذوذ والشرود . ويشترط في ذلك ان تكون الحرية مطلقة في اقواله لا ان يتكلم بحرية في هذا الموضوع لان الحرية فيه موافقة لمصلحته ويداهن ويصانع في ذاك لان الحرية فيه مخالفة لمصلحته . وكل انسان يعذر الكاتب الذي يعيش في بلاد اقلامها مقيدة اذا لم يتجاوز في كتابته حد المداراة القانونية ولكن

ما عذر الكاتب الذي يعيش في بلاد اقلامها مطلقة · لا عذر له غير „ المصلحة ،، فمصلحته هي التي تمنعه من ان يقول الحق الذي يفتكر به وتجبره على مدح ما يستحق الذم وذم ما يستحق المدح · وحينئذ يخرج عن دائرة الوظيفة الحقيقية التي توجد لها الصحافة وتثقف لها الاقلام · ولسنا ننكر ان هذه الحالة شائعة في كل العالم لانها حالة عمومية اذ كل انسان يطلب تايد مصلحته قبل كل شيء · ولذلك كانت اكثر صحافة اوروبا نفسها مبنية على المصلحة · قال احد كتابهم في الشهر الماضي „ ان جرائدنا صارت عبارة عن وباء حقيقي · فان المدح والذم يكالان فيها بلا عدل · وقد قتلوا الانتقاد الصحيح المبني على الصدق وحرية الفكر ووضعوا في مكانه اوراقاً يرسلها المؤلفون واصحاب الكتب · فاذا قرأت انتقاد كتاب فاعلم ان اكثره مكتوب بقلم المؤلف نفسه او بقلم صديق له ،، · نقول ولكن اذا كان في الغرب جرائد هذه حالها ففيه ايضاً جرائد كالتيمس والطان وبرلنر تاجبلاط لا يمكن ان يلحقها شيء من هذا الغبار · فنحن نرجو ان نقوى في الشرق صحافة جدية مستقلة كهذه الصحافة لتخرج من الدائرة التجارية المحضة الى الدائرة الصحافية الحقيقية · ويلوح لنا ان ذلك لا بد منه والا بطل كل تأثير لها على القراء لان الاقوال لا تؤثر الا متى كانت خارجة من القلب والضمير ·

الحاجة الثانية ورب قائل يقول : ماذا يحل بالافكار في الشرق اذا كان كل كاتب فيه يبسط آراءه بكل حرية دون مراعاة مع ما هو معروف من تعدد العناصر · فنجيب : لا يحل بالافكار سوء لان « التساهل » كالماء يخمد كل حدة وكل نزق · فالحاجة الثانية « التساهل » — وليس المراد بالتساهل ان يكون ما يكتبه الكاتب موافقاً لكل الآراء وكل العناصر وكل المذاهب · كلا · فان هذا التساهل يفني قوى الكاتب ويذهب بتعبه ادراج الرياح ويشوه الحقائق اقبح تشويه · ولقد سمعنا مرة بعضهم يقول : ان موقف الكاتب الشرقي صعب جداً في هذا العصر · لانه يكتب للمصري والشامي والجزائري والتونسي والهندي والفارسي والافغاني والقوقازي الخ الخ ولذلك يجب عليه ان لا يكتب الا ما يرضي الجميع · فضحكنا عند سماعنا هذا الكلام وقلنا ان وظيفة الكاتب اسمى من ذلك بكثير · اجل ليست وظيفة الكاتب بتر الحقيقة هنا وتمويه الكلام هناك ارضاء لهذا او ذاك · بل وظيفته ان يقول الحق وينطق بالصدق في اي جانب كان · لكن يشترط عليه في ذلك شرطاً لا بد منه · وهو ان يترك دائماً للقارىء الحكم في المسائل التي يبسطها · لان القارىء قلما يحب ان تضغط عليه لتقنعه · واذا كنت تطلب منه التساهل فيجب عليك ان تعلمه ذلك بالقدوة اي ان تكون متساهلاً في آرائك · لان القدوة خير المعلمين · اذن

لا تضع آراءك واقوالك في منزلة الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد مسه فان لكل انسان نظرًا ومذهبًا في الامور . ومتى احتكت هذه المذاهب والآراء بعضها ببعض فلا يبقى منها مع الوقت الا افضلها . وهذه هي الطريقة الوحيدة لنشر الحقائق والمبادىء نشرًا فعليًا بين الناس وترقية العقول عن الاشياء المألوفة الراسخة في النفوس بحكم العادة . وكن على ثقة من ان كل العناصر التي ذكرتها تقراء اقوالك ولا تستاء منها اذا راعيت هذا الشرط ولو وجدت فيها ما يسوءها لانها تعلم انك لا تقصد بها سوءًا ولا سيطرة على عقولها فيما تكتب وانما تقصد بسط الآراء والمبادىء بعضها بجانب بعض طلبًا للحقيقة في اي جانب كانت

الحاجة الثالثة والحاجة الثالثة ان يحب الكاتب صناعته و يولع بها و يطلبها لذاتها . ولا بد هنا من اعتراض قوي وهو ان جميع الكتاب في كل البلدان يحبون صناعتهم وكثير منهم لا يجنون منها فائدة كبيرة ومع ذلك تراهم متعلقين بها . فالجواب ان هنا اشكالاً تجب ازالته . اذ شتان بين من يولع بشيء لانه عمله الذي خُلق له وبين من يريد ان يجعله عمله قسراً ويرغم طبيعته به ميلاً الى جماله وجلاله . وهذا الخطر موجود في كل مكان لا في الشرق فقط . وقد وضع المسيو بونيه الفرنسوي منذ بضعة اشهر كتابًا سماه « خطر صناعة القلم » او « ثلاثة من عائلة لكران » اثبت فيه ان الوفًا من الادباء يتهافتون في كل عام على صناعة القلم في فرنسا وتسوء حالهم لانهم قهروا طبيعتهم قهرًا على عملٍ لم يكونوا من رجاله . وانما جُذبوا اليه بجاذب جماله .

وانما اردنا « بحب الكاتب صناعته وطلبها لذاتها » مقاومة داءين شديدي الفتك . (الداء الاول) يأس كثيرين من الكتاب من صناعة الادب في الشرق . ولذلك يولولون عليها ويقيمون المآتم حزنًا لموتها . وهذا الامر يسبب ضررين الاول الحط من كرامة الادب لدى قرائه والثاني ازالة الثقة من نفوس اولئك الكتاب . ومتى زالت من نفس الكاتب ثقته في نفسه وفي صناعته فقد قضى على نفسه وعلى صناعته وعلى قرائه ولم يعد يقدر ان يصنع شيئًا مفيدًا . فالاجدر به في هذه الحالة ان يترك القلم بسكون وهدوء ويطلب الرزق من باب آخر . (والداء الثاني) اتخاذ الادب شباكًا لصيد الذهب . وهذه آفة الادب في الشرق . ولسنا ممن يحرّمون الغنى على طلاب الادب ولكننا ممن يحرّمون في الادب جعل المال في المرتبة الاولى والعلم والادب في المرتبة الثانية . لان صناعة الادب ليست بصناعة تجارية ومن يريد معاملتها معاملة التجارة فهو غير اهل لان يكون منها . وسبب ذلك ان موضوع الادب خدمة الجمهور كما تقدم . وهذه الخدمة تقتضي ان تعطي الجمهور من

قوتك ومن نفسك اكثر ما يمكنك اعطاؤه · فالكاتب الذي لا يطلب صناعته لذاتها بل لاجرتها يكتفي في اكثر الاحيان بملء الورق بما يكون قريب المنال اذ غرضه ربح المال لا ابراز ارقى ما يمكنه ابرازه من قوى نفسه · وبذلك يصبح الجمهور مغبوناً والادب مظلوماً لانه ينحط بهذه الطريقة ولا يمكن ان يترقى معها · وحينئذ يتساءل الناس لماذا لا تؤثر الاقلام في النفوس · مع انّ السبب معروف محسوس · وان قيل ان التبعة في هذه الحالة واقعة على الجمهور لانه لا ينشط اهل العلم والادب التنشيط الواجب ليسد حاجاتهم ويجعلهم يطلبون صناعتهم لذاتها · فالجواب ان على الجمهور تبعة عظيمة في هذا الامر ولكن هذا لا يخفف التبعة التي على الكاتب · اذ متى وُجد كتاب يطلبون العلم والادب لذاتهما فانه يكون عندهما الفقر والغنى سيين في هذه الصناعة · لان الغنى الذي في النفوس لا تنقص قيمته عن الغنى الذي في الخزائن ان لم نقل انه افضل منه

﴿ الحاجة الرابعة ﴾ واما الحاجة الرابعة فهي مختصة بقلم الكاتب ونريد بها تضلعه من المواضيع التي يكتب فيها ·

وهذه الحاجة تقسم عندنا الى قسمين · « المادة ولباسها » اي الافكار والالفاظ التي يعبر بها عنها والاسلوب الذي يجري هذا التعبير به ·

اما المادة فهي تكاد تكون موجودة في كل يد · · فان كل كاتب يكفيه لخوض ابواب السياسة والتاريخ والعلم الادبي والعلم الطبيعي والفلسفة ان يفتح اي جريدة اوروبية او اي كتاب اوروبي · · وهذا من فضل اللغات الاجنبية التي تسهل للكتاب طريق هذه العلوم التي تعب المؤلفون عشرات سنين في سبيل تحصيلها · ولكن الحق يقال ليس الذنب في ذلك للشرقيين بل للناموس الطبيعي فاننا الآن في عصر يسميه علماء العمران « عصر القرود » يريدون به عصر التشبه بالغير والتقليد · واذا ساعدت الاحوال المعارف الشرقية فانها ستنتقل ان شاء الله من طور « الاتباع » الى طور « الابتداع » وحينئذ ينبغ في الشرق المبتكرون والمخترعون · ولا نعود نرى المعارف الشرقية عبارة عن نسخة من المعارف الاوروبية وصدى لمجلاتها وجرائدها العلمية والسياسية · بل يكون الباحث في الكيمياء معتمداً في بحثه على معمله لا على مجلته والباحث في التاريخ معتمداً على سياحاته لدرس الآثار في اماكنها الاصلية لا على الكتب والاوراق وهلم جراً · وربما وصل الشرق الى هذا الزمن بعد قرن او نصف قرن اذا ساعدته الاحوال وكثر قراء اللغة العربية فيه كثرة تمكن احد الكتاب من التفرغ لكتابة كتاب واحد في عامين او ثلاثة · اي ان الكاتب يستفيد من كتابه هذا بعد كتابته ونشره

فائدة مالية تكافىء اتعابه ونفقاته ·

وبما ان « المادة » صارت اليوم موجودة في كل يد كما تقدَّم فقد صار الفضل والصعوبة في الاسلوب الذي تُبرز به · ورب مادة يُعطاها كاتبان فيصنع احدهما منها فصلاً ترقص له عجائز وائل ويصنع الآخر منها فصلاً لا يقراه احد · وهنا مذهبان مختلفان يتنازعان الكتاب في كل امة تقريباً · المذهب الاول مذهب الذين يعتمدون على قواعد السلف واصولهم في الكتابة والتاليف فلا يخرجون عنها قيد اصبع · والمذهب الثاني مذهب الذين يحكّمون عقولهم وافهامهم في جميع شؤونهم ويكرهون التقليد اذا لم يكن في محله ويرومون ان يكتبوا كما يشعرون · وعندنا لهذين الفريقين كلمة تدل عليهما احسن دلالة · وهي « ان الفريق الاول يهتمُّ بالالفاظ قبل اهتمامه بالمعاني · والفريق الثاني يهتمُّ بالمعاني قبل اهتمامه بالالفاظ »

ومهما صرخ انصار المذهب الاول فان مذهبهم آخذ في الانقراض · لان تلك الاسجاع الضخمة والالفاظ المنتفخة كأنها الهر يحكي الاسد « قد نبتت في المعد · وصارت في كل يد » كما قال الهمذاني رحمه الله · واذا قابلتَ بين اسلوب الكتابة العربية منذ ٣٠ سنة وبين اسلوبها اليوم رأيت الفرقَ بين الاسلوبين · وان قيل انه قد بقي الى اليوم شيءٌ من تلك الاسجاع والالفاظ المترادفة والتعابير الخطابية التي تسرد منها سطرين او ثلاثة ولا يكون تحتها الا فكر واحد — كانها صبيرة طمثن — نقول ما ذلك الاَّ لانَّ لهذا الاسلوب اصلاً مكيناً في نفس اللغة العربية وهذا الاصل لا يموت وينقرض تماماً الاَّ بانقراض طلاَّبه · ولكنه الآن يموت شيئاً فشيئاً · ولا امل باحيائه الا بطريقة واحدة · وهذه الطريقة يرضى بها حتى اهل المذهب الثاني · وهي ان يعود موءسسو ذلك الاصل من قبورهم الابدية ويكتبوا لنا مثل كتاباتهم الماضية · فحينئذ نقبل منهم ذلك بكل سرور ورضى لان كتابتهم ارقى ما يتصور الانسان كتابته في هذا النوع · وكيف اذا قام الهمذاني من قبره وكتب شيئاً من رسائله يمكننا ان نقول له اترك هذا فقد ذهب وقته · وكيف اذا قام ابن المقفع بلغته السهلة البليغة المفهومة ليعرب عن الهندية كتاباً آخر ككليلة ودمنة يمكننا ان نقول له عربه بلغة الكتابة العصرية لا بلغتك · كلا · اننا لا نقول لهما ذلك · وانما نقوله بلا تردد للذين يحاولون تقليدهما في هذا العصر ولا يكون لهما مقدرتهما · وقد قيل : بين المقلِّد والمقلَّد ما بين التكحُّل والكَحَل · وان قيل ان الاموات لا يعودون بل ينبغ من الاحياء من يقوم مقامهم ويبلغ منزلتهم · فالجواب اين الذي يضمن لنفسه نفساً كنفوسهم ثم يصرف قواها

كلها عشرين سنة او اربعين في درس كتب اللغة والادب ليبلغ منزلتهم فيها . ثم اذا كان مثل هذا الانقطاع ممكناً في الشرق الا يكون من الجناية على الشرق جعله للغة والالفاظ بدل جعله للعلم الحقيقي الذي يرقي الامم وينقلها من حال الى حال .

فالافكار الافكار . المعاني المعاني . هذا هو الغرض الحقيقي من الكتابة . لان الالفاظ ليست سوى لباس او قشور للمعاني — بقي الاسلوب الذي هو صلة بين الالفاظ وبين المعاني لانه قالبها الذي تُسبك به . وفي ذلك نقول

قال بعضهم : ان انشاء الانسان لهو الانسان نفسه . يعني بذلك ان كتابته تدلُّ عليه لانها صادرة عن نفسه . وعلى ذلك يكون اسلوب الانسان في الكتابة على نوعين : اكتسابي وغريزي . فالاسلوب الاكتسابي ما حصله الانسان بكدّ الخاطر وتهذيب النفس ومعرفة الاصول ومطالعة اشهر المؤلفين . والاسلوب الغريزي ما يكون مغروساً في فطرة النفس وهذا لا يُشرى ولا يُباع ولا يُحصَّل لانه ملازم للنفس . وقد قال بوفون وغيره ان قرائح النوابغ تنشأ عن الصبر والكد والمزاولة . وهو قول صحيح من بعض الوجوه خصوصاً في العلوم الطبيعية التي تقتضي من علمائها والمخترعين فيها الكدّ والصبر والجلد الشديد . وهذا نيوتن وباستور خير مثال على ذلك . ولكن العلوم الادبية والفلسفية تختلف عن العلوم الطبيعية . وبما ان العمدة في تلك العلوم (الادبية والفلسفية) على التأثير في النفوس فالواجب ان يكون اسلوبها اللطيف اول اسلحتها . وماذا كان عمل روسو وبرناردين دي سان بيير ورسكن ورنان وغيرهم لو لم تكن فطرتهم مسلحة بذلك السلاح اللطيف الذي كان يهزّ النفوس كما تهزّ الزوابع باسق الاشجار . فعلينا في الشرق ان نذكر اننا محرومون تلك اللذة الحقيقية التي تتناجى بها نفوس القراء والكاتب لاستطاعته تحريكها من اعماقها . ولا نلقين التبعة في ذلك على القراء بل على الكتاب وان كان لهم بعض الاعذار . لان اشجار الحدائق اذا بقيت ساكنة ولم تتحرك فالذنب للريح لانها لم تهب لتحركها .

ولكننا نرى ان هذه الريح محالٌ ان تهب لتحريك الاشجار اذا لم تطلق اللغة العربية من اسر الاهتمام بالالفاظ والسجع والمترادفات وتحدي المتقدمين ويقدَّم عليها الاهتمام بالمعاني المقصود ابلاغها الى فهم القارىء . ذلك لان الانسان لا يستطيع ان يعبر عن العواطف المختلفة التي تختلج في نفسه اذا كان يتعوَّد صرف قواه حين الكتابة الى الالفاظ لا الى تلك المعاني . الا ترى الكاتب اذا تكلم بلغته العامية اندفع اندفاع السيل وابرز بكل سهولة صوراً جميلة من المعاني كانت تجول في نفسه . ولكن اطلب منه ان يُبرز تلك الصور الجميلة

باللغة الفصحى ملتوتة بالمترادفات الزائدة والالفاظ الفخمة والاسجاع الفارغة . فانه يقيم يوماً كاملاً لكتابة ما عبَّر عنه في ساعة واحدة بلغته التي يتكلم فيها . وما يكتبه يجيء بارداً . ولا نقل ان سبب ذلك كونه لم يتعود الكتابة بلغة الهمذاني والحريري . كلا . ما من سبب لذلك سوى انه مع اللغة العامية يفتكر بالمعاني فقط ومع لغة السجع والمترادفات يفتكر بالالفاظ . ولكن اخبرونا ما هو الكاتب . الكاتب كالشاعر هو الذي يشعر بالمعاني شعوراً اشد من شعور سواه ويبرزها الى القراء باسلوب جميل لطيف سهل مفهوم لابلاغها اليهم . ويتفاضل الكتاب كما يتفاضل الشعراء اي ان افضلهم اشدهم شعوراً والطفهم احساساً . ولذلك قالوا ان الكتابة صناعة من صناعات النفس . وما الكتاب العظام الذين اقاموا بني عصرهم واقعدوهم بما كانوا ينشرونه بينهم سوى نفوس ادق شعوراً من باقي النفوس كانوا يجمعون العواطف التي تختلج في صدور بني عصرهم بوجه مبهم غامض ويبسطونها واضحة جليَّة يتناولها القريب والبعيد لانهم كانوا اشد شعوراً بها . — فتأملوا في هذه الوظيفة التي هي وظيفة الكتَّاب الحقيقيه وقابلوها بوظيفتهم متى كان عملهم مقصوراً على طلب الالفاظ الغريبة من قواميس اللغة واقتناص التعابير البدوية والاساليب القديمة التي لم يبقَ ما يسوّغ استعمالها في عصر كهذا العصر . لاريب عندنا ان هذا بمثابة ردم معادن المعاني في نفوس الكتاب وجعل اذهانهم عبارة عن مخازن للالفاظ فقط . وبذلك يُقضى على الكاتب العربي ان تبقى كتابته بلاتاثير في قرائه مهما ابدع واجاد في تنسيق التعابير والالفاظ لان الالفاظ عبارة عن جماد لا يؤثر في النفس اذ النفس لا يؤثر فيها الا فيض المعاني الخارج من نبعها العذب . ولا تنسَ اننا قلنا في مقدمة الكلام ان وظيفة الكاتب الكتابة للامة لا لنفسه ولا لطبقة واحدة من طبقات الامة وان حسن التأثير شرطها الاول والفائدة العمومية اساسها الحقيقي

فلسطين واشهر آثارها

لحضرة نجيب افندي نصار الخوري اللبناني في طبريا

تكلمنا في المقالة الاولى عن اشهر مدينة في فلسطين وهي مدينة القدس او اورشليم ٠ وقبل الاستطراد الى باقي الاماكن والبلدان المشهورة في هذه القطعة التاريخية المقدسة عند الامم الثلاث نذكر شيئاً عن مملكة بني اسرائيل القديمة تمهيداً للموضوع

ان بني اسرائيل لم يستولوا استيلاءً تاماً الاّ على قسم سوريا الواقع غربي الاردن — ما عدا الارياف البحرية الجنوبية من يافا حتى غزة وهي بلاد الفلسطينيين الحقيقية من غزة مملكة الاسرائيليين من بئر سبع على مسافة نحو ثلاثين ميلاً الى الجنوب الشرقي٠ وامتدت حتى دان اي تل القاضي الواقع عند سفح جبل حرمون وراء سهل الحولة ٠ وانقسمت هذه المملكة في ايام الملك رحبعام بن سليمان الى مملكتي يهوذا واسرائيل ٠ فانحصرت مملكة يهوذا الجنوبية في القسم الواقع حوالى القدس بين بئر سبع جنوباً ورامة بنيامين على بعد ثمانية اميال من القدس شمالاً ٠ وتضمنت مملكة اسرائيل البلاد الواقعة شمالي تلك٠ وانقسمت اراضي هاتين المملكتين بعد سبي نبوخذنصر الى ثلاث مقاطعات ٠ وهي مقاطعه اليهودية و يمكن حصرها تقريباً في متصرفية القدس الحالية ٠ ومقاطعة السامرة وهي ما تحتويه متصرفية نابلس بدون فرق كبير٠ ومقاطعة الجليل وهي بلاد الناصرة وطبريا وصفد الحالية

وقد قسم الرومانيون البلاد بعد ذلك الى اربع ولايات ومقاطعات لا يمكننا ذكرها لضيق المجال لانها كانت تختلف كثيراً باختلاف الازمان والعمال والحروب

اما بلاد اليهودية فهي بلاد جبلية وعرية قليلة الخصب والقسم الجنوبي الشرقي منها الواقع حوالى البحر الميت برية جدباء ٠ ومن اشهر مدنها القدس التي مر الكلام عليها ٠ و يافا وهي موضوع كلامنا الآن

يافا

يافا فرضة بحرية واقعة على اكمة تعلو قليلاً عن سطح البحر في نقطة متوسطة بين غزة وراس الكرمل وعلى مسافة نحو ٣٥ ميلاً الى الشمال الغربي من القدس وهي كائنة في طرف سهل شارون الخصيب الذي تغزل سليمان الحكيم بجمال ازهاره

﴿ تاريخها ﴾ هي من اقدم مدن العالم وقد كانت تُدعى جافو لاعتبار بعضهم ان

اسمها مشتق من يافث ابن نوح ويوبا لزعم آخرين انه مشتق من اصل عبراني ومعناه جميل . وجوبا نسبة الى جوبا ابنة عولص التي ربطت مع اندروميدا ابنت زفس الى صخر في البحر هناك وتُركتا عرضة لحيتانه حتى اطلقهما برسوس . قال احد المؤرخين ان ملاحي اليونان لفقوا هذه الحكاية مما وصل اليهم من رواية يونان النبي والحوت

واول ما ورد ذكر يافا في سفر يشوع بن نون غير انها اشتهرت في ايام الملك سليمان بانها كانت ميناء مملكة اسرائيل . ومنها هرب يونان وجرى ما جرى له كما هو مذكور في سفره . ولقد ظن الكتبة ان حسن موقعها كان السبب في نجاتها من الخراب في غزوة نبوخذنصر . وجاء في سفر المكابيين انها كانت امنع حصن في فلسطين . وكان سكانها يومئذ اخلاطاً من مكدونيين ومصريين وسوريين ويهود . واذ اتفقت الفرق الثلاث الاولى على اليهود وثاروا عليهم وطرحوا منهم عدداً في البحر هاجمها يهوذا المكابي ليلاً واخذها واحرق سفنها بمن لجاء اليها من تلك الفرق . وقد هاجمها ساسثيوس في سنة ٦٣ مسيحية واحرق الوفاً من سكانها وضمها الى الولاية السورية الرومانية . ثم سلخت عنها واعطيت لهيرودس الكبير . وبعد عزل ابنه ارخيلاوس اعيدت مع باقي فلسطين الى الولاية السورية الرومانية وقد غزاها ساستيوس غالوس في سنة ٦٦ مسيحية . ثم تجمع اليها اليهود من انحاء فلسطين فارسل اليهم فسباسيانوس فرقة من جنده من قيصرية فالتجأوا الى السفن . فهبت عليها عاصفة كسرتها واغرقتهم . ثم قتل العسكر الروماني من نجا منهم على الشاطيء

ودخلها الدين المسيحي منذ ايام الرسل . وفيها رأى بطرس رؤياه « ان يذبح ويأكل كل مما انزل الله عليه في ملاءة من السماء واوحي له ان لا ينجس ما خلقه الله تعالى » وهذه الرؤيا وقعت كالضربة القاضية على تقاليد اليهود القديمة وجرأت الرسل على المناداة بالمساواة بين جميع الشعوب وحلت الطائفة المسيحية ومستقبلها من قيود الشريعة اليهودية وما ألحق بها من التقاليد بوجوب تحريم بعض المآكل وتحليل الاخرى واعتبار هذا طاهراً وذاك نجساً

وصارت المدينة في ايام قسطنطين كرسي اسقفية وبقيت كذلك الى الفتح الاسلامي اذ صارت ميداناً لحروب دموية متتابعة بين الفاتحين والصليبيين الجأت سكانها الى الهرب من ويلاتها . فبقيت مهجورة حتى اوائل القرن السابع عشر اذ اطمأن الناس فعادوا اليها وعمروها . وبالنظر لحسن موقعها التجاري كانت تنمو نمواً سريعاً . وفي سنة ١٧٩٩ هاجمها بونابرت وكانت يومئذ تحت ولاية الجزار . ولما لم تفتح له ابوابها هدم اسوارها ودخلها

عنوة وقتل الفاً ومئتي اسير ممن اسرهم فيها بدعوى أنهم خانوا عهده وعادوا الى محاربته قبل انتهاء الاجل الذي ضرب به لهم في ان لا يعودوا الى مثل ذلك عندما اطلق سراحهم بعد اسره اياهم في موقعة العريش . فحسب له التاريخ هذه وتسميمه الجنود التي اصيبت بالطاعون من جيشه فظائع ضد الانسانية

و بعد ما غادر نابوليون المدينة عاد الانكليز فرمموها ولم تلبث طويلاً حتى نمت كثيراً وهي لا تزال آخذة في النمو بالابنية وعدد السكان . ولها سهم كبير في التجارة بصادرات البلاد كالحنطة والذره والسمسم والبرتقال والصابون وغير ذلك . وهي الميناء الاولى للسياح و زوار البلاد الفلسطينية . فتربح بذلك ارباحاً جزيلة

✷ سكانها ✷ كان عددهم ستة آلاف يوم غزوة بونابرت ولكنهم بلغوا الثلاثين في يومنا هذا منهم نحو خمسة عشر الفاً من المسلمين وسبعة آلاف من المسيحيين وستة الاف من الاسرائيليين . والباقون اجانب من الالمان واليونان وغيرهم

✷ المدينة ✷ مركز قائمقامية من الصنف الاول تابعة لواء القدس وقد جددت فيها محكمة تجارية لاتساع تجارتها وفيها وكلاء لقناصل الدول الاجنبية وعدة مدارس للحكومة والجمعيات الخيرية ومستشفيات خيرية انكليزية وفرنسوية والمانية

✷ ابنيتها ✷ ان ابنيتها كباقي المدن الشرقية القديمة عديمة الانتظام ومزدحمة . اما الابنية الجديدة فمتقنة وجميلة ولا سيما خارج البلد . ومن جهة المدينة الشمالية الشرقيـة مستعمرة المانية جميلة جداً تتخلل ابنيتها الطرق الواسعة المستقيمة وتحيط بها الجنائن الصغيرة الغاصة بالاشجار والازهار وفي المستعمرة فنادق كبري متقنة معدة لقبول السياح والغرباء واسواقها القديمة ضيقة وقذرة اما الجديدة في شرقي المدينة وشماليها وجنوبيها فهي احسن من تلك كثيراً و يلقى الناظر فيها ما يدل على الهيئة المدنية

وفي جهتها الجنوبية بقرب الفنـار جامع صغير يُظن انه في مكان بيت سمعان الدباغ الذي راى فيه بطرس رؤياه غير ان ذلك يحتاج الى اثبات

✷ ميناؤها ✷ شبيه بمرفاء صغير محاط بصخور طبيعية هائلة اكثرها تحت سطح المياه . والمدخل الى هذا المرفاء ضيق بين صخرين كبيرين فيخاف الملاّحون من عبور القارب في ذلك المضيق ابان الانواء التي تتعاظم كثيراً اثناء هبوب الرياح الصرصرية حتى لا تعود السفن تجسر على الوقوف في تلك الميناء . وقد قال بعض الكتبة ان المرفاء كان اصطناعياً في الاعصر القديمة وان ابنيته كانت قائمة على الصخور الطبيعية الحالية غير

انه يستدل من وصف يوسيفوس ان حالة الميناء القديمة لم تكن الا كما هي اليوم . وحبذا لو تهتم الحكومة في تحسين هذا المرفاء وجعله امينًا فيكون ذلك سببًا لتقدم كل فلسطين الجنوبية ونجاحها نجاحًا عظيمًا

﴿ سكتها وجنائنها ﴾ و يسير القطار الحديدي ذهابًا وايابًا مرة في كل يوم بين يافا والقدس ويقطع مسافة الطريق البالغة اربعة وخمسين ميلاً في ثلاث ساعات واربعين دقيقة . والمدينة محاطة بجنائن البرتقال اليافي الذائع الشهرة في جميع البلدان . ولزهره رائحة عطرية تعطر الارجاء والنواحي في فصل الربيع . وللثمر بعد نضجه منظر بين اغصانه الخضراء الغضاء يأخذ بمجامع القلوب . وتُرسل منه مقادير كثيرة الى اوروبا فيربح اليافيون به ارباحًا وافرة

اللد

اللد واقعة على مسافة اثني عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي من يافا ومحاطة بكثير من اشجار التين والزيتون والتوت والرمان والصبر الكثير الذي تتناثر اشواكه الدقيقة في الرياح فيصيب الاعين نصيبها منه ولذلك تكثر الامراض البصرية في اللد . وفيها محطة للسكة الحديدية وقد كانت قديمًا على طريق القوافل التجارية بين بلاد الشام ومصر . ولذلك لم تكن قليلة الاهمية

﴿ تاريخها ﴾ يدعوها العبرانيون لود ولودًا والرومانيون ديوسبوليس . ولم تكن ذات شهرة في عهد الاسرائيليين وقد سكنها البنياميون منهم بعد العودة من السبي . وسلخها ديمتريوس نيكانور عن السامره وضمها الى اليهودية دلالة على رضائه عن المكابيين . و بعد موت يوليوس قيصر باع كاسيوس اهلها عبيدًا فحررهم انطونيوس بعد ذلك بقليل . وقد سبب شفاء بطرس اينياس المفلوج من دائه انتشار الدين المسيحي فيها . واحرقها ساستيوس غالوس في طريقه الى القدس فلم يمضِ عليها زمان طويل حتى عادت الى العمران . و يشهد بذلك وصف يوسيفوس لها حين سلمت لفسباسيانوس بقوله عنها : انها قرية لا تقل عن مدينة في حجمها وعدد سكانها . وانه كان فيها مدرسة يهودية اسرائيلية شهيرة . وجعلها المسيحيون كرسي اسقفية في القرون الأُول بعد المسيح . و بقيت في زمن المسلمين عاصمة جند فلسطين حتى بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ونقل كرسي الولاية اليها . وزهت كثيرًا في ايام الصليبيين الذين اعادوا بناء كنيسة مار جرجس فيها . ولكن لم تلبث طويلاً حتى اصابها ما اصاب غيرها من جراء الحروب وتداول الايدي لها . و يروى ان بعض المسلمين

يعتقدون ان المسيح يقضي على المسيح الدجال عند ابوابها . وقد خربها المغوليون في سنة ٢٧١ و بقيت في حالة الاهمال الى اواخر القرن السابع عشر اذ عمرها اهالي يافا

﴿ كنيسة الشهيد جورجيوس ﴾ لم يوفق الباحثون بعدُ الى معرفة بانيها كما انهم لم يتفقوا كلهم على كون القديس المذكور دُفن فيها . واصح ما قيل انه ولد في اللد واستشهد في اواخر الجيل الثالث في نيكوديميا على اثر الاضطهادات التي ثارت على المسيحيين في عهد ديوكليشيان ومكسيميان وان عظامه نُقلت من هناك الى اللد . وقد قال البعض ان جوستينيانوس هو الذي بنى هذه الكنيسة غير ان بروكوبيوس الذي يعدد الابنية والآثار التي شادها هذا الامبراطور لم يأتِ على ذكر هذه الكنيسة في اللد بل ذكر كنيسة باسم هذا القديس في ارمينيا . والذي يتبادر الى الذهن ان كنيسة اللد بُنيت قبل تلك بزمن طويل . وقد بنى المسلمون على آثارها جامعاً في اواخر القرن الخامس عشر . غير ان الحكومة جادت به من زمن غير بعيد على الروم الارثوذكس

الرملة

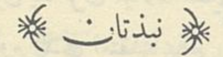
الرملة واقعة على مسافة ثلثة عشر ميلاً ونصف الى الجنوب الشرقي من يافا على ارض رملية ولذلك دعاها بانيها الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي كان مدة خلافة اخيه والياً على جند فلسطين « الرملة » . وقد بناها في سنة ٧١٦ مسيحية . غير ان اسمها هذا جعل بعض الكتبة يظنون بكونه محرفاً عن (رعمقايم صوفيم) المذكورة في التوراة واقتاد آخرين الى تاويله الى رامة صموئيل . وقال غيرهم انه مشتق من اريماثا المذكورة في الانجيل . ولكن المدققين لم يحفلوا بهذه الآراء لان مؤرخي المسلمين اثبتوا حقيقة زمن بنائها

﴿ تاريخها ﴾ واول ما بنى سليمان المذكور قصره ثم داراً للصباغين واسس الجامع وشرع في بنائه واتصلت اليه الخلافة بوفاة اخيه فاتمه . واتم بناء المدينة عمر بن عبدالعزيز الذي تولى على جند فلسطين بعده . وقد قال المقدسي ان المدينة كانت ذات سور وحصن واسواق . وان لها اثنى عشر باباً . وقال الادريسي ان اسواقها الكبيرة كانت متصلة بابوابها الاربعة الكبرى وانها كانت ذات اهمية كبرى لانها كانت داراً لحكومة الجند الفلسطيني وقد احرقها ايفالين في سنة ١١٧٧ . وفي سنة ١١٨٧ استولى عليها صلاح الدين غير انه احرقها بعد ذلك مع كنيسة اللد خيفة من استيلاء ريشارد قلب الاسد عليها . وبعد عقد الهدنة بين هذين الرجلين العظيمين جعلوا الرملة مناصفة ثم اعطيت كلها للصليبيين فاستخلصها منهم السلطان بيبار . وزارها بيلون في سنة ١٥٤٧ فلم يجد فيها اكثر

من اثني عشر بيتاً و زارها نابوليون الكبير واقام فيها ليلة واحدة · وهي الآن قرية كبرى فيها نحو سبعة آلاف من المسلمين والف من المسيحيين الارثوذكس وهي مركز مديرية تابعة يافا وفيها محطة للسكة الحديدية وفندق الماني

﴿ جامعها ﴾ واقع في جهة المدينة الغربية الحالية وقد كان واقعاً في وسط المدينة القديمة · ولقد ذكرنا بانيه · وقد قال المقدسي انه لامثيل لمحرابه في كل البلاد الاسلامية · اما مأذنته فبناها هشام ابن عبد الملك بمواد كان المسيحيون اعدوها لبناء كنيسة بلعة وتهددهم بهدم كنيسة اللد اذا لم يعطوه المواد لبناء تلك المأذنة · فاستدل بعض كتبة المسيحيين الجاهلين حقيقة هذه الرواية من شكل هذه المواد على ان الجامع كان كنيسة ومأذنته قبة جرس · ولهذه المأذنة نظارة واسعة تحيط بكل الانحاء المجاورة

وليس هناك محلات اخر ذات اهمية كبرى بين القدس ويافا تستحق ان نفتح لها مجالاً في هذه العجالة غير عمواس التي دعاها الرومانيون نيكوبوليس المذكورة في الانجيل · غير ان الثقاة اختلفوا كثيراً في حقيقة هذا الموقع فلا يسعنا المجال لسرد آرائهم فيه



العناصر الشرقية والتقريب بينها

﴿ نبذتان ﴾

واحدة للفيلسوف ابن رشد وواحدة لرئيس الكلية الاميركية في بيروت

لو سئل الشرقي : اي عمل افضل الاعمال في بلادك · لاجاب ان افضل الاعمال ما كان متعلقاً بتآخي العناصر الشرقية المتعددة والتقريب بينها لتعيش بهدوء وسلام في ارض واحدة بدل ان تفني قواها في ما لا فائدة منه · ولذلك يسرنا دائماً ان نشير الى ما نجده في طريقنا من دلائل الاعتدال والالفة وعوامل التقريب والتوفيق · ولقد عثرنا في هذا الشهر على اثرين راينا من الواجب ان نشير اليهما · الاول فقرة لفيلسوف الاسلام ابن رشد مختصة بمسالة التثليث عند المسيحيين · فانه يرى فيها رأياً موافقاً لراي عقلاء النصارى اليوم كل الموافقة · واليك كلامه ·

قال ابو الوليد رحمه الله في كتابه تهافت الفلاسفة يشرح مسالة النفس وصفاتها « (فان قيل) ان الفلاسفة يعتقدون ان النفس فيها امثال هذه الصفات وذلك انهم

يعتقدون انها دراكة مريدة محركة وهم معتقدون مع هذا انها ليست بجسم . والجواب انهم ليس يرون هذه الصفات هي للنفس زائده على الذات بل يرون انها صفات ذاتية . ومن شان الصفات « الذاتية » ان لا يتكثر بها الموضوع الحامل لها بالفعل بل انما يتكثر بالجهة التي يتكثر المحدود باجزاء الحدود **وذلك انما هي كثرة ذهنية عندهم لا كثرة بالفعل خارج النفس** . ومثال ذلك ان حد الانسان حيوان ناطق وليس النطق والحياة كل واحد منهما متميزاً عن صاحبه فيه خارج النفس بالفعل واللون والشكل . ولذلك يلزم من يسلم ان النفس ليس من شرط وجودها المادة الا يسلم انه يوجد في الموجودات المفارقة بما هو واحد بالفعل خارج النفس كثير بالحد . وهذا هو مذهب النصارى في الاقانيم الثلاثه وذلك انهم ليس يرون انها صفات زائدة على الذات **وانما هي عندهم متكثرة بالحد وهي كثرة بالقوة لا بالفعل** ولذلك يقولون انه ثلاثة « في » واحد اي **واحد بالفعل ثلاثة بالقوة** . »

والاثر الثاني خطبة وجيزة القاها حضرة المفضال رئيس الكلية الاميركية في بيروت يوم الاحتفال بتذكار المولد النبوي . وقد وجدنا خلاصة هذه الخطبة في رصيفتنا ثمرات الفنون الاسلامية الغراء التي تطبع في بيروت فنقلناها عنها حسب روايتها قالت الرصيفة

« اتصل بنا انه في يوم الاثنين الماضي المصادف لذكرى المولد النبوي الشريف قام حضرة الفاضل الدكتور هورد بلس رئيس المدرسة الكلية الجديد واعظاً في منتداها وقال

« اليوم يحتفل اخواننا المسلمون بذكرى ميلاد عظيم من عظام الانبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) ومع ان للمسيح المقام المعلوم الذي نعتقده ينبغي لنا ان نفكر بمقاصد ذلك النبي العربي الكريم ونجعل حياته نصب اعيننا

« ثم استشهد الرئيس بكلام (لكرليل) الكاتب الشهير هاته خلاصته

« كلام مثل هذا العظيم (يعني النبي محمد صلعم) هو لسان الفطرة وروح الوجود وعلى العالم ان يصغوا له . قد كان يجول في خاطره اثناء رحلاته وحجه كثير من المواضيع الكونية المعضلة . منها ما انا ؟ وما هذا الوجود الذي لا يسبر غوره ولا يعرف سره ؟ ماهي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ ماذا اعمل ؟ وكان يطلب عليها مجيباً . لكن صخور حراء وسيناء ورجال الفيافي الموحشة والسماء المحيطة مع نجومها المتلالئة لم تشف غليلاً ولم ترد جواباً . من هاته لا ينتظر كشف المعميات . لكن قلب الرجل وما اودعه الله هناك من الوحي هما عليهما كشف الحقائق ورفع الستور

« وفي رمضان سنة ٤٠ من حياته صعد يوماً الى جبل حراء للتفكر ثم رجع لزوجته

خديجة واخبرها انه بتعطف الهي يعجز اللسان عن وصفه عرف الحقيقة واهتدى لامور الكون وان كل هاته الاوثان اخشاب لا تسمن ولا تغني من جوع . وان تلك التقاليد الدينية هي بقايا لا معنى لها ولا فائدة فيها . وان ثمة الهاً عظيماً بيده مفاتيح الكون واليه ترجع الامور . خلقنا وهو يحفظنا . وما الموجودات الا ظله تعالى

« الله اكبر من كل كبير . والاسلام هو التسليم لمشيئته وقدرته . قال غوث (اشهر شعراء الالمان) اذا كان هذا هو الاسلام اما نحن في وسط الاسلام عائشون ؟ انتهى باختصار يسير

نقول والمقصود مما تقدم اظهار ان الاعتقاد بالله تعالى وتسليم الامور اليه والاتكال عليه كاف ٍ لان يكون رباطاً يجمع جميع البشر على الاخاء والتعبد له . لان العدو الحقيقي للاديان في هذا الزمان انما هو الجحود والتعطيل . وبذلك تكسد بضاعة التعصب والتفريق والتضليل

حادثة السرب

لجناب الشاعر المشهور مصطفى افندي صادق الرافعي

ذكر مقتل الملك اسكندر والملكة دراجا زوجته التي كانت من نساء امه وتزوج بها لحبه لها وقد قتلها رؤساء الجيش هجوماً على قصرهما كالوحوش الضارية

قُتل الحب ياليالي الودادِ ... فاسلمي بالقلوب والأكبادِ
مهجة تلتظي غراماً ولكن ... الف قلب يغلي من الاحقاد
وصدور كالنار غطي عليها ... من سواد الرياء شبه الرماد
وهموم الحياة تُخلق للقلـ ... ـب وأي امرئ بغير فؤاد
ما أمنا الزمان الا كما يأ ... من ابليس زاهد الزهاد
كل يوم يصيح بالناس صوت ... كضجيج «الساعات» في الميعاد
أين من يأمن العوادي والنا ... س بأجناسهم ثمار العوادي
من تدعه فريثما يدرك النضـ ... ـج ورب البستان بالمرصاد
وقتيل من كان في الغاب حياً ... تتولاه أعين الآساد
انما الناس ما يخلده النا ... س وان كان امرهم للنفاد
ان ذكر الذين شادوا وسادوا ... لم يزل راسخاً على الاطواد

واذا المرء اودع الارض سرًا نبشت سره يد الآباد
ان تشأ ان ترى حديثك بعد الـ موت فانظر الى حديث العباد
كم ترينا الايام من عبر شتى كأن الايام في استعداد
واراها في عبرة قد طوتها كانطواء (المليون) في الاعداد
في مليك كساه امس جلالاً وغدا اليوم بالي الابراد
كان فوق السرير فانقلب الدهـ ـر فامسى به على الاعواد
وقضى العمر يوم عيد فلما مات ضنّت ايامه بالحداد
ومن الهم ان ترى عين باك ادمعُ الموت غير ادمع الميلاد
شدّ ما يؤخذ الظلوم اذا ما سار في الناس سيرة استبداد
انما انفس الانام سيوف ان تُحرك سالت من الاغماد
اين من كان في الثغور ابتساماً وهو اليوم مضغة الحساد
اين من كان في البلاد رجاءً وهو اليوم عبرة في البلاد
سطروا ذكره علي صحف التاريـ ـخ من سوء فعله بمداد
واروه ان الفساد وان طا ل فعقبى اموره للفساد
لم يكن يجهل الرشاد ولكن عمي الحب عن سبيل الرشاد
واضلّ الهوى هوى ملك الار واح يبغي محاسن الاجساد
ان للتاج ربة لا تزين التـا ج الا بطلعة الاولاد
لا كتلك التي هي الصدف الفا رغ نحساً لطالع الصياد
عذلوه فيها فكان مريضاً ساخراً بالطبيب والعوّاد
واذا كان للخطيئة عذر اي عذر لمخطئ في التمادي
ابعدوها عن القلوب فلم ير ض وصعبٌ تجاور الاضداد
هو القي في النار فحماً فلما اجّ لم يختطف سوى الوقاد
ليس للملك من يسوق هواها حامل التاج مثل سوق الجياد
انضجته بالحب حتى اذا ما بلغ النضج اطعمته الاعادي
وارته العينان ان بياض الحظ قد شابه الهوى بسواد
جردت من لحاظها فاتكات جرأت كل تلكم الاجناد
ليتها حين لم تقده لمجد لم تخلِّ الزمام « للقواد »

ليتها حين أسهرته عليها ما جزته بمثل هذا الرقاد
قتلته ببغيها وتلته وارى البغي جامعاً كالوداد
اي ايدٍ قد بدلت ذلك الود بحب الرصاص فوق الهوادي
او ماخافت الكواكب ان تسقط من غيرة على الاجياد
ما لتلك اللحاظ وهي حداد اصبحت في العذو غير حداد
لم تؤثر في قلبه نظرات ربما اثرت بجسم الجماد
قتلوا ظبية القصور ولكن قتلة الصائدين جبة وادي
حسبوها فأراً وهم قطط البيت فلم ياكلوه قبل الطراد
وكذا يقدم اللصوص اذا ما ابصروا الرأس مال فوق الوساد
ما ارى هذه الشهامة الا حمقاً من فظاظة الاكباد
عربدوا في الدم المراق وما الوحش اذا اغتال يترك الدم بادي
وكذاك اليهود من قبل عدوا يوم صلب المسيح في الاعياد

اولاد الفقراء ومصائفهم

اختراع اميركاني

مما يطيب ذكره للدلالة على اهتمام الغربيين بالاعمال العمومية النافعة اختراع للمستر ويلرد برسنس احد رعاة الدين في احدى قرى بنسلفانيا في الولايات المتحدة . وهذا الاختراع يدوي الآن في اوربا لدى علماء الاجتماع دوياً شديداً . فان هذا الرجل خطر له في سنة ١٨٧٧ ان يأتي بتسعة اولاد من شوارع نيويوك ويُسكن كل واحد منهم لدى مزارع في قريته مدة ١٥ يوماً . وكلما انقضت هذه المدة كان يعيد اولئك الاولاد الى نيويورك ويأتي بغيرهم . فما انقضى فصل الصيف حتى بلغ عدد الاولاد الذين تمتعوا بالاصطياف بلا نفقة نحو ٦٠ ولداً . فخطر حينئذٍ للمستر برسنس ان يعمم هذا العمل . فانشأ جمعية كبرى غرضها ارسال الاولاد الفقراء من المدن السوداء الى البرية ليتمتعوا باستنشاق الهواء النقي ومشاهدة الحقول الخضراء ولو ١٥ يوماً في السنة

وقد ارسل المستر برسنس في عام ١٨٧٧ ـ ٦٠ ولداً فقط . اما اليوم فجمعيته ترسل

في كل نصف شهر ٢٠ الف ولد الى البرية ليقيموا فيها ١٥ يوماً و٣٠ الف ولد ليقيموا فيها يوماً واحداً . وقد بلغت ميزانية الجمعية في العام الماضي ١٤٠ الف فرنك مجموعة من اهل الاحسان الذين يرومون نفع اولئك الاولاد . اما نفقة ارسال الولد فهي لا تتجاوز ٩ فرنكات اذ لا يُدفع عنه سوى اجرة السكة الحديدية لتناوله كل ما يحتاج اليه من بيت مضيفه

والفائدة الاجتماعية الكبرى من هذا العمل المفيد انما هي في خروج اولئك الاولاد المساكين خمسة عشر يوماً من وسَطهم واقامتهم في وسط هادىء يجدون فيه كل شروط الادب والتهذيب والنظافة وجودة الغذاء . فيعقد بين الاولاد وبين مضيفيهم عهود الصداقة والوداد منذ الصغر . قال احد مضيفيهم « والغريب ان تأثير هؤلاء الاولاد على مضيفيهم يكافىء هؤلاء على ما يحسنون به عليهم . فانهم يبقون البركة وراءهم . ويعطون اكثر مما ياخذون . ذلك انهم يؤثرون في القلوب . فان اهالي بلادنا سمعوا كثيراً من العظات عن الصدقة والاحسان غير انهم كانوا لا يلبثون ان ينسوها . ولكن اقامة هؤلاء الصغار عندهم جعلت في نفوسهم من الاحسان صورة لا تُنسى »

ويؤخذ من الاحصاء الاخير ان الفي ولد من الاولاد الذين ارسلوا الى القرى وردهم بعد رجوعهم الى مدنهم دعوات من مضيفيهم يطلبون فيها ان يعودوا اليهم كل سنة . ومنهم من تزوج في القرية التي كان يذهب اليها . ومنهم من استخدم عند مضيفه واقتصد مالاً فابتاع به مزرعة صغيرة ثم تزوج بابنة سيده . ومنهم من أجبر اهله على ترك المدينة للاقامة في البرية لانه لم يعد يجد لذة في الاقامة بين الاقذار والاوضار . فكأن هذه الجمعية المفيدة تعاكس فعلاً قبيحاً للتمدن . فان التمدن يخطف الفلاح من قريته الهادئة ليحشره في المدينة السوداء اما هي فانها تخطف ابن المدينة وترسله الى الخلاء ليقوم فيه مقام ذلك المغتر بجمال المدن .

تلاعب الحسان بعقول الفتيان

او الشاب المغرور في الازبكية

لحضرة محمود افندي خيرت معاون مركز ادفو

يامن لنا عهدٌ لديه وموثقُ   العفو اولى بالكريم واليقُ
لم اجنِ ذنباً في هواك وانما   هم زوّروا لك ما سمعت ولفقوا

ولقد رجوت الصبر بعدك باطلاً والقلب يا أبي والمدامعُ تسبقُ
فقصدتُ نحو الازبكية عاني امحو بها تلك الهموم وامحق
ودخلت اجمل قهوة مع صاحبٍ صادفته واخو الهموم موفقُ
وجلست اذجلس الصديق ولا تسل عما حواه المجلس المتأنق
قد زُينتْ بالكهربا ارجاؤه حتى كأن الشمس فيه تشرق
وغدت مراوحه تدورُ كأنها طيرٌ يرفرف والهواءُ يصفق
واجمع الى هذا الجمال اوانساً يبرزن للقلب الخليّ فيعشق
ولقد تكلفت الحديث وصاحبي في شاغل يرنو لهن ويطرق
يشكو الهوى سرًا وخاطر فكره وجدًا يغرّب تارةً ويشرّق
حتى دنت من بينهن مليحةٌ رومية ترمي القلوب وترشق
فتنفس الصعداء لما اقبلت وفؤاده وجدًا بها يتحرق
جلستْ بجانبه نخامره الهوى واخو الخلاعة بالتهتك اخلق
قالت له ما ذا تريد (أبيرةٌ) ؟ فاجاب لا . كنياكُ . ذلك اوفق
واذا سمحتِ لمجالسينا لحظةً ثم اطلبي ما تشتهين وا نفق
فتهللت فرحًا واسرعت الخطا مدفوعةً فكأنما هي زئبق
ثم انثنت من بعدها وبكفها خمرٌ تذيبُ بها القلوب وتحرق
خمرٌ معتقةٌ ولكن الذي يحيي بها عبد لها لا يُعتق
ولقد نصحت الى الصديق وكلما محضته نصحي يزيد ويحنق
فتركتها لفنونها وتركته لجنونه وهو الجنون المطلق
ولبثت انظر ما يكون من الهوى في امره وانا عليه مشفق
فاذا هما يتغامزان وصاحبي بادي الهموم وفكره متفرق
فاسترجعتْ قالت وقد لمحت على احدى يديه خاتماً يتألق
دع عنك حب الغانيات فلست من اربابه حتى تلاقي ما لقوا
ان كنت تهوى اين تذكار الهوى يا ايها المتلون المتملق
ورمت باسرع ما يكون لكفه يدَها . فابعدها . فقامت تُبرق
وجرت . فامسك ثوبها . فتفلتت منه وادمعه تسيل وتنطق
فسعى بخاتمه لها واعادها والاشعبية لا ترق وترفق

وادار رنات الكؤوس فاوشكت روحي تذوب لهول ذاك وتزهق
وعجبت من هذا الذي شاهدته فكتمته والصدر مني ضيق
حتى دنا الميعاد فانصرف الورى وهو الذي فيه الملاهي تُغلق
وبدت مصابيح المحلة تنطفي شيئاً فشيئاً والظلام يحلّق
فتعجلته على الحساب ودفعه والهم يحتاط الفؤاد ويحدق
فرمى لها عشراً من الذهب الذي يرنو له قلب الفقير فيخفق
ثم انثنى فتكلفت توديعه والغرُّ يحسبها تحبُّ وتصدق
فتبعته عدواً فلم اعثر به وانا احدق في الدجى واحقق
فقصدت ساحة بيته وانا الى ما كان بعد خروجه متشوق
فاذا به قطع الطريق له على قدميه(١)وهو يكاد غيظاً يُصعق
فعجبت من نزق الشباب وجهله وكذاك يفتقر الغنيُّ الاحمق

آثار الشرق القديمة

برغاميا وفنونها الجميلة

انشأت المانيا في برلين متحفاً جديداً دعته « برغامون » لتجمع فيه آثار برغاميا وفنونها الجميلة

برغاميا الاولى والثانية ويُطلق اسم برغاميا عادة على مدينتين . الاولى مدينة ترواده المشهورة التي زعم الدكتور شليمان انها كانت حيث قرية حصارلك التركية اليوم . والثانية مدينة في آسيا الصغرى كانت فيما مضى عاصمة لمملكة كبيرة وهي المقصودة في هذا الفصل . وقد كان لهذه المملكة شأن يُذكر في عهد ليزيماكوس (احد قواد اسكندر المكدوني) الذي استأثر بها بعد وفاته وانقسام سلطنته . ثم اخذت برغاميا تترقى حتى صارت في عهد ملكها اتال الاول والثالث (سنة ١٣٣ ق م) من اقوى ممالك آسيا واهمها . وقد انشأ فيها ملوكها كثيراً من المباني العمومية والخصوصية وزينوها بالفنون اليونانية الجميلة

(١) اشارة الى انه لم يبقَ معه شيء من المال يركب به الى منزله

﴿ فنونها وآثارها ﴾ وقد مضت على الالمان عدة سنوات وهم يحفرون و يبحثون في آثار برغاميا فتمكنوا من جمع قطع هيكلها القديم واعادة تركيبه · ووجدوا كثيراً من التماثيل والنقوش التي كان البرغاميون يمثلون فيها حوادثهم وخرافاتهم · منها تماثيل تمثل حرب الآلهة وابناء السماء الذين تمردوا عليهم (التيتان) ـ و بيان ذلك ان فريقاً من المخلوقات كانوا يدعون عندهم « ابناء السماء والارض » تمردوا على الالهة لانها لم تكن تسمح لهم بالصعود الى السماء فصاروا يركبون جبلاً على جبل قصد الارتقاء اليها · فلما رأت الآلهة ذلك هاجمتهم واشتبك القتال بين الفريقين · وغني عن البيان انه انتهى بانتصار الالهة · ففي التماثيل التي وجدت في برغاميا منظر الآلهة وابناء السماء آخذون بعضهم برقاب بعض بشكل في غاية الجمال · منها شاب من ابناء السماء يسقط مصعوقاً بضربة من مينرفا الاهة الحكمة · وكل آثار هذه الفنون تدل على ان الفن البرغامي فن مستقل بذاته · لان الفن اليوناني الذي تقدمه كان يمتاز بالهدوء والسكينة لاعتماده على ارقى صور الكمال في النقش · واما الفن البرغامي فاعتماده على الحركة والهياج · لذلك ترى اكثر آثاره منقوشة بحالة الحركة والهياج الشديد · ولكن في الفن البرغامي ما ليس في الفن اليوناني الكامل القديم من تمام معرفة الجسم البشري وابراز حالاته النفسانية باتقان غريب ·

﴿ الامبراطور غليوم ومتحفه ﴾ ويوم افتتاح هذ المتحف الالماني في برلين القى الامبراطور غليوم خطبة لانه يخطب في كل شيء · فقال ان الفن العصري المبني على الاصول الطبيعبة العملية افضل من الفن القديم المبني على التصور والخيال · فردّ عليه علماء الفنون بقولهم ان الفن الطبيعي الذي يطلب تمثيل الموجودات الحقيقية ان هو الاّ عبارة عن رد فعل للفن التصوري الخيالي ولذلك كان في آثار برغاميا كثير من الفن الطبيعي · ـ نقول وهذه الحرب بين الطبيعي الموجود و بين الخيالي الكمالي كائنة اليوم في كل مكان وفي كل فرع من فروع العلوم والفنون

باب الاخبار العلمية

﴿ كانت الخرطوم بحراً ﴾ بحث العلماء حديثاً في جيولوجية افريقية · وهناك مذهبان فيها · المذهب الاول المذهب القديم وهو الاعتقاد بان البحر كان داخلاً

في صحراء ليبيا ممتداً من النوبة الى الخرطوم دون ان يصل الى بحيرة تشاد . والمذهب الثاني مذهب المسيو لابران احد اعضاء المجمع العلمي . فان الكابتن غاردن ارسل اليه حفريات وجدها في الصحراء الافريقية بين النيجر وبحيرة تشاد فظهر له انها شبيهة بكثير من الحفريات التي وجدت في نواحي باريز . فاستنتج من ذلك ان البحر لما كان غامراً باريز كان غامراً افريقيا حتى بحيرة تشاد والنيجر

﴿هل هنود اميركا آخذون بالانقراض﴾ لا يألو المستر بوب والماجور بول الاميركيان جهداً في نقض ما يعتقده الناس من ان هنود اميركا آخذون في الانقراض . وقد اثبتا رايهما باحصاءات عديدة ونشر رسوم مدارس اولئك الهنود وصور عائلاتهم وطلبتهم فاذا بهم لا فرق بينهم وبين المتمدنين في شيء

﴿التصوير الفوتوغرافي بالتلغراف﴾ عرض المسيو كورن على مجمع العلوم في باريز اختراعاً يقدر به وهو في مرسيليا ان يصور بالفوتوغراف رجلاً مقيماً في باريز وذلك بان يقف الباريزي امام سلك ممتد من باريز الى آلة الفوتوغراف في مرسيليا . ولكن هذا الاختراع لا يزال ناقصاً وهو آخذ في اكماله

﴿علاج للتتانوس﴾ كانوا يعالجون التتانوس بمصل يستخرج لهذا الغرض اما اليوم فقد ابلغ الدكتور كالمت مجمع العلوم انهم يستعملون بدل المصل مسحوقاً مصنوعاً منه ليتمكنوا من نقله الى اقاصي البلدان دون ان يطرأ عليه طارئ . ومما قاله في بلاغه هذا ان اي جرح يلحقه التراب او الوحل يمكن ان يُصاب بالتتانوس اذ تكون ميكروباته كامنة في ذرات التراب .

﴿قتلا اللبن للاطفال﴾ بلغت وفيات الاطفال الذين يرضعون من الممصات الصناعية (الرضاعات) في باريز ٢٣٠ طفلاً في اسبوع واحد مقابل ٣٩ طفلاً يرضعون من الثدي . ولا سبب لذلك غير رداءة اللبن الذي يتناولونه لان تجاره يغشونه ويمزجونه بمياه فاسدة . فيجب الانتباه جيداً الى لبن الاطفال عندنا .

﴿نفقة العائلة في اليابان بشهر واحد﴾ حسبوا ما تنفقه عائلة معلم من معلمي اليابان اذا كانت مؤلفة من زوج وامراة وولد فاذا به في شهر واحد ٢٨ فرنكاً . هذا مع ان اثمان المواد ارتفعت كثيراً بعد حرب اليابان مع الصين . فلا ريب في ان المعيشة في اليابان رخيصة جداً وربما كانت شبيهة بمعيشة الشرقيين منذ ٤٠ سنة .

﴿اولادهم واولادنا﴾ ذكرنا في باب المقالات (مصائف الاولاد) في

اميركا وهنا نذكر مكاتبهم ٠ ففي بوسطن من اعمال الولايات المتحدة مكتبة للاولاد في الطبقة الثانية من المكتبة العمومية فيها نحو ١٠ الاف مجلة من كل ما يحب الاولاد الاطلاع عليه كالقصص والتواريخ والسياحات والصور والكتب المفيدة ٠ وقاعة المكتبة تسع ١٥٠ ولداً وفيها فتيات لرعاية الاولاد واحضار الكتب لهم ٠ وفي ايام الآحاد والاعياد يُضاف رجلان لمساعدتهن لكثرة عدد الفتيان والفتيات الذين يتوافدون على مكتبتهم ٠ وجميعهم يجلسون و يطالعون بكل لطف وادب ٠ وكبارهم يأتون باخوانهم الصغار ليروهم الرسوم ويقرءوا عليهم بعض القصص ٠ ولم يُذكر قط ان احدهم خطر له يوماً ان يسرق كتاباً او صورة من المكان ٠ وقد بلغ في العام الماضي عدد الكتب التي طلبت ٦٤٦٨٦ كتاباً ٠ ويجوز لهم ان ياخذوا بعضها الى الخارج — فلا عجب ان يصبح اولادهم رجالاً في كبرهم ما دام هذا هو الوسط الذى يربونهم فيه ويكون اولادنا على ما تعرف من احوالهم ما دام وَسَطهم القهاوي والحانات والشوارع والاجتماعات الفارغة التي يتعلمون بها سوء الخلق بالقدوة السيئة ٠

باب التقريظ والانتقاد

الاحتلال في مصر والهند

اليتيم

بقلم جناب احمد افندي حافظ عوض

في مصر — وكل بلاد تحتلها سلطة اجنبية — حزبان ٠ حزب يكره هذا الاحتلال لانه في منزلة القتل لحرية الامة ٠ وحزب لا يرى امكان التقدم والارتقاء في مصر مع وجود العناصر المختلفة فيها الا بقيام سلطة عليا فوق جميع هذه العناصر لتساوي بينها مساواة مطلقة في الحقوق العمومية ٠ والعادة انه اذا رسخت قدم الاحتلال وظهر انه لا أمل للبلاد المحتلة بالتخلص منه ان ينقسم سكان هذه البلاد الى ثلاث فئات : الاولى تتنفس الصعداء لأمنها على اشيائها وحينئذ تطلق اموالها من قيودها لتستثمرها في بلاد امينة وتبتاع الاملاك والاطيان وتؤلف الشركات اي تعمل عمل مقيم اقامه نهائية ٠ والثانية تبقى مطالبة بحق الحرية والاستقلال

وحكومة الذات بالذات والوعود والعهود وذلك باسم المبادىء الطبيعية الابدية التي لا يجوز نقضها ٠ والثالثة ترى ان القوة هائلة لا تقاوَم فاذا قاومت خسرت الفوائد التي تنتج عن المسالمة فتدير الظهر للاستقلال وتعمل على طلب الفائدة — ولكل فريق من هؤلاء الثلاثة حجج قوية يؤيد بها رأيه ٠

واماما الآن كتاب صغير الحجم كبير الفائدة عنوانه « هنا وهناك » بقلم جناب احمد افندي حافظ عوض احد محرري جريدة المؤيد ٠ وموضوع هذا الكتاب بحث في حالة الاحتلال في الهند ومقابلته بالاحتلال في مصر ٠ ويظهر من مطالعة صفحاته ان جناب المؤلف من الفئة الثانية وبذلك يكون على خلاف مع جريدته لانها صارت في المدة الاخيرة في جملة الفئة الثالثة ٠ قال جنابه في الصفحة ١١ ,, والذي يطالع الجرائد التي يحررها الهنود انفسهم باللغة الانكليزية يتوهم من اول وهلة ان الانكليز اصلحوا البلاد الهندية تماماً ورقوا اهلها ونظموا امورها لما يقرؤه من الثناء والمدح في سياسة انكلترا فيقول الانسان اذا كان هذا ما يقوله الهنود انفسهم فهو اعظم برهان على تقدم البلاد الهندية وارتقاء احوالها واصلاح امورها ٠ ولكن الباحث المدقق الذي لا يأخذ الامور بظواهرها لا يكتفي بذلك ٠ وحقيقة انه لا يكاد يفرغ الانسان من تلاوة اقوال المدح والثناء والتبجيل والاجلال لانكلترا واعمالها حتى يجد في الصحيفة التالية او في النهر التالي لما قرأه من الجريدة شكوى من القحط او المجاعة او الفقر او سوء الادارة في الحكومة الهندية مصحوباً كل ذلك بالتعطف والرجاء وان شئت فقل بالمدح والثناء حتى يكاد يضيع صواب القارىء ولا يعرف اي القولين يصدق عن اعمال انكلترا ٠ واذا طالع الانسان الجرائد التي يحررها الانكليز يجد في كل صحيفة وفي كل نهر من الجريدة ما يراه في بعض الجرائد المصرية التي اخذت على نفسها ان تبرر اعمال الانكليز دائماً بغير تمحيص او تدقيق وتحرق لهم بخور الثناء في كل صباح ومساء وهو ما لا يحبه ولا يقول به الانكليز انفسهم ,, ٠ وقال في الصفحة ١٤ ,, وما غرضي من ذلك بعد ان امتنعت زمناً طويلاً عن الكتابة في السياسة قاصراً نفسي على المباحث الاجتماعية والادبية وما يجري مجراها الا خدمة بلادي بان اوضح للناس حقيقة اعمال الانكليز في الاقطار الهندية ليكونوا على بصيرة من حاضرهم ومستقبلهم اذ ان المثال اوضح من النظرية والواقع اصدق من كل شيء ٠ فانا اعتقد ان الهند هي خير مثال لسياسة انكلترا وكل ما يصدق عليها او ما تم لها يصدق علينا او سيحصل لبلادنا عاجلاً او آجلاً ,, ٠ وقال في الصفحة ٥٨ ,, سترى من الجدول الآتي هل صدق الانكليز في وعودهم مع الهنود حتى ننتظر منهم الصدق في عهودهم

معنا . ولا يفلح شعب يسلّم نفسه لغيره سياسياً وماليًا وادبيًا وتجاريًا ،،

وفي هذا الكتاب فوائد كثيرة موءيدة بالارقام عن الهند وسياستها وتجارتها ونهضة العنصر الاسلامي فيها فنحث القراء في الهند على اقتنائه ومطالعته

اما اليتيم فهي رواية صغيرة للموءلف نفسه ايضاً وقد كتبها عند خروجه من المدرسة واعادت طبعها الآن مسامرات الشعب . ويظهر ان اكثر هذه القصة كانت عن نفسه

البوءساء

تعريب حضرة الشاعر المشهور حافظ افندي ابراهيم

كتاب « الميز رايل » اشهر كتاب لفيكتور هيغو . بعضهم يرفعه الى السحاب فوق كل كتاب وبعضهم يضعه في مرتبة باقي الكتب الجميله الاعتيادية . قال المسيو بول بورجه احد رجال الاكاذمية الفرنسوية في مقالة كتبها بالفرنسوية لجريدة التيمس ونشرتها هذه الجريدة في يوم الاحتفال بتذكار مرور مائة سنة على ولادة هيغو « ان فيكتور هيغو لم يبتدع شيئًا مهماً في هذه الرواية . بل كل ما ذكره فيها ُسبق اليه . فان الراوي اوجين سو سبقه الى وصف مكنونات باريز وشقائها وطلب الرحمة لضعفائها . غير ان الشيء الوحيد الذي اخترعه هيغو في روايته هو الصبي كفروش الذي وصف فيه صبيان الازقة في باريز وصفاً صار مضرب المثل »

ولكن مهما قيل في رواية « الميزرابل » فانها تبقى عبارة عن محكمة اجتماعية عظيمة خاصم فيها فيكتور هيغو وحده الهيئة الاجتماعية الحاضرة وجعلها تنكس رأسها واجبر المحكمة بالحكم عليها . وقد سرّنا ان جناب الشاعر المشهور حافظ افندي ابرهيم اقدم على تعريب هذه الرواية وابرز الجزء الاول منها . ونحن على ثقة من انه متى اتمّ جنابه تعريبها واطلع قراء الشرق على موضوعها بالتمام فقلّما يجدون فيها امرًا غريبًا من حيث الاخلاق الفاضله المقصود وصفها لان تصورات الشرقيين قريبة جدًا من التصورات الدينية والانسانية التي هي جمال هذه الرواية وذلك لتمسكهم بشرائعهم الدينية ورؤيتهم في تاريخها كثيرًا من الافعال الجميلة التي بالغ المؤلف في وصفها واطرائها

ونحن نشكر لجناب المعرب الفاضل خدمته الادب . انما نرجو ان يسمح لنا بملاحظة صغيرة . وهي ان طريقة هيغو في الكتابة كانت طريقة الرومانتيك ولقد كان هيغو زعيم هذه الطريقة في فرنسا وهو الذي نصرها على طريقة الكلاسيك بروايته هرناني كما شرحنا ذلك في ترجمته

في الجزء السابع من السنة الثالثة (الصفحة ٤٣٥) فلو قام اليوم هيغو من قبره ورأى ان مترجمه قد ترجم كتابه بطريقة الكلاسيك لاستاء كثيراً منه لانه كان اعدى اعداء هذه الطريقة التي تأسر روح الكاتب وتجعله يهتم بالالفاظ اكثر من اهتمامه بالمعاني . ونحن نرجو مع محبي هذه الرواية الاجتماعية ان يعدل عن هذه الطريقة في اجزائها المقبلة ويحرص على الاصل ويتابع تصورات هيغو الفلسفية اذا كان يحرص على جمال الرواية ويروم ان تروج في اللغة العربية رواجاً حقيقياً . والاَّ فانه يجني على المعلّم هيغو جناية لا نظنه يرضاها له اذ يجعله صغيراً حتى بازاء الكتَّاب المعاصرين فضلاً عن المتقدمين

لحن كيوتزر

تاليف الفيلسوف تولستوي وتعريب جناب رفول افندي سعاده

نشرت رصيفتنا جريدة المناظر الغراء في سنتها الماضية رواية للفيلسوف تولستوي معربة بقلم جناب رفول افندي سعاده عنوانها "لحن كيوتزر" . واتفق اننا في ذلك الحين كنا نقرأ جريدة الطان فرأينا فيها عن هذه الرواية خبراً غريباً . وخلاصة هذا الخبر ان احد ناشري الكتب في الولايات المتحدة نشر هذه الرواية فيها فكان لها دوي شديد ونفدت نسخها كلها في شهر واحد . وقد سرت مبادئها في نفوس قرائها فكره كثير من الازواج المعيشة الزوجية الاعتيادية وصاروا يميلون الى معيشة العفاف حتى مع زوجاتهنَّ لانَّ من مبادىء تولستوي ان اجمل واشرف معيشة يعيشها الرجل هي المعيشة بعيداً عن المرأة وقد قال : ان المسيح بقوله « من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنا في قلبه » قصد به كل امرأة حتى الزوجة ايضاً . وعلى هذا بنيتْ هذه الرواية

فلما رأى ناشر هذه الرواية رواج روايته الى هذا الحد . كتب الى تولستوي كتاباً طويلاً يطلب منه رواية اخرى . وبعد ان ذكر له ذلك الرواج العظيم الذي اصاب روايته قال : وبناء على هذا فانني اقدّم للفيلسوف ثلاثة ريالات اميركية عن كل كلمة من روايته الجديدة مهما كان عدد صفحاتها

ولكن هل يعلم القارىء ماذا كان جواب تولستوي على هذا الطلب ؟ اليك خلاصة جوابه . قال : بما انك تربح من رواياتك الى هذا الحدّ فيجب عليك ان تخفض قيمتها للناس . اما انا فلا ابيع كتاباتي بالمال

قال الكاتب الذي روى هذا الخبر : ولكن ما ضرَّ تولستوي لو قبل تلك العطية الملوكية

ثم وهبها للفقراء والمحتاجين ما دام في غنى عنها

وقد جُمعت رواية «لحن كيوتزر» على حدة بعد نشرها في جريدة المناظر وقدّم لها حضرة معربها مقدمة اجاد فيها حيث قال «ولكن اذا كان الفكر هو الذي يصنع الرجل كما قال شاتوبريان ولا يستطيع ان يقاتل ذلك الفكر الا الفكر نفسه كما قال بنجامين كوبستان فعبثاً يحاول جماعة من الروس الضغط على استاذنا الاعظم تولستوي وعلى مؤلفاته» ثم قال «وعند ما ثار عليه اضداده جاءه صديق واخبره بما ينسبون اليه وبما يعيرونه به فابتسم وامسكه بيده واخرجه الى خارج البيت وكان اذ ذاك وقت الهاجرة وقال له مشيراً الى الشمس — هل ترى هذا الكوكب العظيم الذي يسبح في الفضاء فوق رؤوسنا لا يحجبه عنا شيء . فقال نعم اراه — فقال له — هل يمكنك ان تحدق نظرك فيه جيداً . فقال كلا لان الاشعة القوية المنبعثة عنه تضرُّ بباصرتي . فقال له الفيلسوف وهكذا الحقيقة تظهر واضحة لكل الناس ولكن لا يتجرأ الكل على الجهر بها لانها تجرح

فنحن نشكر حضرة المعرب لاخراجه هذه الرواية الجميلة الى اللغة العربية . انما كنا نود لو حذف من بعض صفحاتها بعض العبارات التي «تخدش الآذان» كما يقولون . نعم نحن لا نجهل ان الرواية كلها مبنية على «ذلك الموضوع» ولكن ما هذا بعذر لها عندنا اذ كان في الامكان الاكتفاء باشارات نحيفة اليها . وانما عذرها الحقيقي عندنا ان القارىء يكره «ذلك الموضوع» وينفر عنه بعد وقوفه على عباراته بدل ان يتهيج له ويميل اليه . وهذا هو السر في التهذيب والفائدة من المطالعة

وستلخص «مجلة السيدات والبنات» في جزئها الآتي شيئاً من هذه الرواية لانها رواية نسائية محضة

﴿الخطوة الاولية﴾ لقد خدم جناب شكري افندي الخوري ابناء وطنه في البرازيل خدمة تُذكر فتشكر بوضعه لهم كتاباً يتلقون به اللغة البرتغالية اللغة الشائعة في تلك البلاد. وقد بدأ كتابه بمقدمة هذه فاتحتها «يستغرب الواقف على هذا الكتاب اذا كان يعرف جامعه معرفة شخصية ويعرف عدم تضلعه باللغة البرتغالية . اما انا فاقول ان هذا الضعف في معرفتنا لغة البلاد كان الحامل على نشر هذا الكتاب» . فنحن نشكره بلسان المهاجرين الذين يحتاجون الى كتابه على هذه الخدمة المفيدة

﴿اللائحة الجلية﴾ هي خلاصة اعمال الجمعية الخيرية الارثوذكسية في بيروت في السنة الماضية . وقد طبعت بمصادقة سيادة الحبر الجليل السيد جراسيموس مطران بيروت وتوابعها ومنها

يؤخذان دخل الجمعية بلغ اكثر من ١٩٣ الف غرش ونفقاتها اكثر من ١٢٣ الفاً منها ١٧ الفاً احسانات شهرية وغير شهرية و٥٨ الفاً رواتب اساتذة و١٩ الفاً لابنية جديدة و ٩الاف رسوماً اميرية . والذي سرنا في هذه الارقام ان نفقات التعليم تبلغ اكثر من ثلث النفقات العمومية فيا حبذا لو كانت تزيد على نصفها فان كل ما ينفق في هذا السبيل يذهب في احسن طريق سواء كان ذلك لزيادة عدد المدارس وترقية التعليم او كان لمكافأة المعلمين الافاضل الذين يبذلون دماءهم في مهنة هي اشق المهن واجلّها

الخدمة المدرسية اهدانا حضرة الفاضل جرجس افندي الخوري المقدسي (ب ٠ ع) مدرس اللغة العربية في المدرسة الاميركية بطرابلس الشام نسخة من كتابه المدرسي « الخدمة المدرسية في تسهيل قواعد اللغة العربية » وقد توخى فيه تسهيل قواعد الصرف والنحو للمتعلمين المبتدئين بناءً على اختباره الطويل في صناعة التعليم . فنحث المعلمين على الاطلاع عليه ومقابلته بالكتب التي بين ايديهم لعلهم يجدون فيه من السهولة ما هو ضالتهم المنشودة . وهو يطلب من جناب مؤلفه في طرابلس الشام .

النجم هو كراس وضعه حضرة كامل افندي الخلعي وفيه ملح وفكاهات وحكم منها : كان رجل مصارع يكون ابداً مصروعاً . فترك الصراع وتعلم الطب . فقال احد الفلاسفة : الآن يصرع الناس .

الفتى الريفي . غادة الربيع اهدانا جناب الناظم الناثر محمود افندي خيرت معاون مركز ادفو وصاحب القصيدة الرقيقة في هذا الجزء نسخة من روايته « الفتى الريفي » التي نشرها في مسامرات الشعب واخرى عنوانها ،، غادة فصل الربيع ،، فنشكر هديته ونثني على اجتهاده في خدمة الأدب .

الفتاة اليابانية هي الرواية السادسة عشرة من روايات مسامرات الشعب لواضعها جناب حسن افندي رياض في نظارة المعارف العمومية . وقد كتب عليها انها « تأليف » لا تعريب فاذا كان حضرة واضعها الفاضل قد عانى مشقة وضعها من غير اعتماد على رواية اجنبية فقد كان الاسهل له ان يؤلف رواية عن الفتاة المصرية بدل الفتاة اليابانية وحينئذ يكون الاقبال على روايته اكثر مع ان مشقة التأليف واحدة في الروايتين .

جمعية تهذيب الشبيبة السورية اسست في بيروت جمعية بهذا العنوان وغرضها ،، تهذيب الاحداث السوريين في المدارس العالية بقطع النظر عن مذهبهم وموطنهم ،، وقد وردتنا نسخة من قانونها فنرجو لها النجاح

ثمن النسخة الواحدة فرنكان واجرة البوسطة غرش صاغ

الدينُ والعلمُ والمال

المدن الثلاث

ذكر مدينة الدين ومدينة العلم ومدينة المال وما جرى بين سكانها من النزاع ودعاوى كل فريق منهم على خصمهُ وكيف انتهت مشكلتهم التي هي اليوم اكبر المشاكل عند كل الامم والشغل الشاغل لفلاسفة العمران ورؤساء الحكومات

تأليف

فرح انطون

منشئ مجلة (الجامعة)

« فنحذر العالم من يوم يصير فيه
« الضعفاء اقوياء والاقوياء ضعفاء

الاسكندرية في ١ لوليو (تموز) سنة ١٩٠٣

فهرست الكتاب

المقدمة

من الروايات ما يُنشأ للتفكهة والتسلية ومنها ما يُنشأ للافادة ونشر المبادىء والافكار . والذين انشئوا رواياتهم للافادة في الغرب معدودون في مقدمة مشاهير المؤلفين كتولستوي وزولا وكيبلنغ وغيرهم . فان كل واحد من هؤلاء الكتاب لا يرى في وضع الروايات حطة وضعة بل يعتبر الرواية منبرًا ينشر منه آراءه وافكاره بطريقة تبلغها الى اذهان القراء بسهولة . ونحن في الشرق محرومون هذه الطريقة لعدم رواجها لاسباب لا محل لذكرها هنا . ولذلك كانت الروايات التي تُنشر عندنا لا غرض منها غير التفكهة الا بعضها

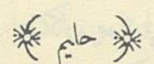
ولما وصلنا في ابراز مواد « الجامعة » الى المواضيع المهمة التي تكمّل مباحثها السابقة خطر لنا ان نهجر اسلوب المقالات المتقطعة والفصول المتفرقة الى اسلوب الرواية لانه اجمع واوعى فضلاً عن كونه اشد تاثيرًا واحسن وقعاً . فعزمنا بحوله تعالى على ابراز عدة روايات كل واحدة منها تبتدىء وتنتهي في جزء واحد تسهيلاً لمطالعتها واستيعابها لان الانتظار يقطع الرغبة فيها . وسيكون اهتمامنا فيها بالمبادىء والافكار مقدماً على الاهتمام بالحوادث والاخبار . ولكن هذا لا يمنع من التزام ما تقتضيه الروايات من الوصف وتصوير العواطف والحوادث تصويراً طبيعياً لان فن الروايات فنٌّ بسيكولوجي جماله وتأثيره متوقفان على حسن سبكه ولطف اسلوبه ودرس باطن الانسان واخلاقه وبثّه درساً دقيقاً

وهذا الكتاب « الدين والعلم والمال » هو الرواية الاولى من هذه الروايات . وموضوعه معروف من عنوانه . وقد سميناه هنا (رواية) على سبيل التساهل لانه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علائق المال والعلم والدين وهو ما يسمونه في اوروبا « بالمسالة الاجتماعية » وهي عندهم في المنزلة الاولى من الاهمية لان مدنيتهم متوقفة عليها

وربما قيل ان هذا الموضوع غير لاصق بنا كل اللصوق لان « المسألة الاجتماعية » لا تزال صغيرة عندنا . فالجواب ان هذه المسائل هي مدخل للمباحث التالية في الكتب التالية . ذلك لان المباحث الاجتماعية والفلسفية مرتبطة في الحقيقة بعضها ببعض فلا يمكن تحقيق احدها دون الغوص الى اعماقها لمعرفة اساسها . وقد اظهرنا الاساس في هذا الكتاب . فعسى ان ينال من رضى ساداتنا القراء والكتاب ما ينشطنا في خدمتنا

الاسكندرية ١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣ « المؤلف »

الفصل الأوَّل



والمدن الثلاث التي كان يحج اليها الناس

فقال له الشيخ وهل تقيم عندنا طويلاً يابنيَّ

فاجاب الشاب نعم ياعم فانني جئت من اقاصي البلاد لاشاهد المدن الثلاث التي سار بذكرها الركبان . وربما استغرقت اقامتي عندكم شهراً على الاقل . لانني سازورها واحدة واحدة والبحث في شؤُونها بحث مؤَرخ دارس لا بحث متفرج

فتنفَّس الشيخ الصعداء وقال . اف اف كم يزور الناس هذه المدن الثلاث . فهم يظنونها عجيبة من عجائب الدنيا مع اننا نحن لا نراها الاَّ مدناً كباقي المدن . انظر اليها اي فرق بينها وبين باقي المدن سوى قيامها في هذا السهل الفسيح بشكل مثلث

فنظر الحاضرون الى حيث اشار الشيخ فشاهدوا امامهم سهلاً فسيحاً لا يعرف الطرف آخره . وكان في هذا السهل ثلاثة بلدان جميلة البنيان محاطة من كل جهة بالحدائق والبساتين والحقول الصفراء من منظر الزرع تخللها المواشي المختلفة وهي ترعى بحراسة فتيان وفتيات كانوا جالسين افراداً وازواجاً وجماعات تحت الاشجار المثمرة او في ظل بعض السياجات

فقال الشاب بعد ان سرَّح طرفه في هذا المنظر البري . حقاً انه منظر بديع

وكان المكان الذي يقيم فيه الشاب والشيخ مع بعض من الزائرين منزلاً صغيراً في قرية صغيرة قريبة من « المدن الثلاث » وكانت هذه القرية في اول السهل على مقربة من

النهر الجميل الذي كان ينساب في السهل انسياب الافعى ليسقي زروعه واشجاره . وقد سمي الناس هذه القرية « الدخول » او قرية الدخول لانها المدخل الى المدن الثلاث ــ الى تلك البقعة التي كان يحسبها الناس جنة الله في ارضه

فبعد ان امعن الشاب النظر قليلاً في المدن الثلاث التفت الى الشيخ وقال : هل تعرف ياعم تاريخ تأسيس هذه المدن بالتدقيق

فاجاب الشيخ : كل الناس هنا يعرفون هذا التاريخ يابنيَّ لانهم لا ينسون ذكر ذلك الرجل الكريم والانسان الذي لا مثيل له بين البشر مؤسس هذه المدن ومنشئها . انظر الى تلك الحديقة البعيدة الكائنة في وسط المدن الثلاث . هذه حديقته وقد اقام لها فيه اهل هذه المدن تمثالاً عظيماً يحتفلون بتذكاره مرة في كل عام

فقال الشاب انك تتكلم عن المرحوم الشيخ سليمان فاحكِ لي قصته وقصة تأسيس هذه المدن من اولها

فسعل الشيخ قليلاً واصلح جلوسه فوق الوسادة ثم اخذ يقول

منذ نحو مائة سنة يا بنيَّ كان الشيخ سليمان فتى فقيرًا يتيماً يتجول في المدن يطلب عملاً . فذاق في صباه كل انواع العذاب في هذه الحياة . ومما كان يزيد عذابه نفسه الحساسة الكبيرة طبقاً لما قيل

وانعس الناس حالاً من تكون له   نفس الملوك وحالات المساكينِ

ولكن يظهر ان العناية الالهية يا بنيَّ لا تخصُّ بعض هذه النفوس بالشقاء والنقم والعذاب الا لمقاصد سامية . فانه اذا كانت المصائب تسحق النفوس الصغيرة وتفلّ عزائمها فانها تشدّد عزائم النفوس الكبيرة لانها تعلّمها بالاختبار ما لا تتعلمه بسواه . فهي كالعود الطيّب الذي لا تنتشر رائحته الا متى مسته النار او كالزيت الذي لا يضيء الا بالاحتراق .

وهذا ما جرى للشيخ سليمان . فانه بعد ان ذاق من مصائب الحياة ما ذاق في ابان الفقر والضيق لم تسمح له طبيعته الكريمة ان ينسى ذلك في ايام الثروة والرخاء

انَّ الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

ولذلك كان همه اول ما اثرى وجمع مالاً طائلاً ان يقوم بمشروع كانت تحدثه نفسه به منذ صباه فانه في ذات يوم أعلن في البلاد كلها اعلانًا غريباً أُلصقه في الشوارع وفرقه في الناس وبعثره في الطرق والاسواق . ومحصل هذا الاعلان ان كل فتى وكل فتاة يجولان في الشوارع بلا شغل ولا رزق اذا قصداه فانه يعطيهما شغلاً ورزقًا واسعًا . فلم يمضِ على

هذا الاعلان اسبوع واحد حتى بلغ عدد الفتيان الذين قصدوه ٣٢٤٥ فتى وعدد الفتيات ٣١٢٠ . فاشترى الشيخ سليمان هذا السهل الواسع الذي امامنا ومساحته ٥٠٠٠ فدان واسكن اولئك الفتيان والفتيات فيه واحضر لهم زراعاً وصناعاً يدربونهم على الزراعة والصناعة واقام منهم حكومة لهم وسن لهذه الحكومة قوانين وجعل فيها قضاة وجنداً ورئيساً اعلى . نعم ان ذلك كان مضحكاً في بدء الامر ولكنه لم يلبث ان صار جدياً مهماً . فان اولئك الفتيان والفتيات الفقراء الذين اجتمعوا من كل الجهات انتقلوا بهذه المعاملة من حالة الى حالة . فبعد ان كانوا مثلاً يجمعون اعقاب السكائر من الشوارع والاسواق ليبيعوها الى تجار الدخان او يطوفون المدينة بالنهار باثواب بالية قذرة يستعطون قوتهم او يطلبونه من فضلات المنازل في المزابل وفي الليل ينامون اكداساً اكداساً في زوايا الطرق على البلاط البارد حتى في اشد ليالي الشتاء برداً كانهم حيوانات لا بشر — صاروا يشتغلون بشرف واجتهاد في اماكن معدة لذلك ويلبسون من اجرة شغلهم ثياباً نظيفة ويتغذون باطعمة مغذّية . ولم تعد ترى في عيونهم ذلك القلق الشديد الذي كان فيها حين كانوا في تيار تلك المعيشة الهائلة التي لا يكون فيها الانسان على ثقة حتى من بلغة يسدّ بها رمقه في المساء او في الصباح لتدوم له حياته . بل حلّ محل ذلك القلق طمانينة تامة لثقة ذلك العامل الصغير بان حياته صارت مضمونة . ولذلك صار يبتسم للحياة ابتسام الراحة والارتياح بعد ان لم يكن يبتسم من قبل الا ابتسام عدم المبالاة بشيء حتى بالحياة . ومما زاده راحة وسعادة حكومته نفسه بنفسه تحت مراقبة الشيخ سليمان وصيّه . فانه لم يمرّ على هؤلاء الاولاد نحو سنة من الزمان حتى صاروا يشعرون بالتبعة التي عليهم ولذلك صاروا يراعون الحدود في سلوكهم . ومن هذا اليوم يبداء تاريخ نهوضهم من عثرتهم

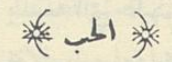
فقطع الشاب كلام الشيخ وقال : اذاً اجداد سكان هذه المدن الثلاث كانوا من فضلات الازقة والشوارع

فقال نعم يا بني ولكن تذكر ان الورد لا ينبت الا من الشوك والنرجس لا يخرج الا من بصل . على اننا نحن سكان هذه القرية كنا نودّ لو اقتصر سكان هذه المدن الثلاث على المعيشة التي عاشها اجدادهم اولئك الفتيان العاملون لان في ذلك راحتنا من الاضطرابات والفتن التي قام قائمها بين السكان في الازمنة الاخيرة . فاولئك الفتيان كان لا همّ لهم غير زراعة ارضهم واتقان مصنوعاتهم والمعيشة بسلام بعضهم مع بعض . اما اصحابنا هؤلاء فان دأبهم النزاع والخصام . فنعم الآباء ولكن بئس ما ولدوا

فقال الشاب وما سبب نزاعهم وخصامهم

فقال الشيخ : انت ترى يا بنيَّ ان هذه المدن ثلاث . فاحداها تُدعى مدينة المال لان اهلها كلهم يشتغلون بجمع المال . والثانية تدعى « مدينة العلم » لان اهلها كلهم يشتغلون بالعلم . والثالثة تدعى « مدينة الدين » لان اهلها كلهم منقطعون الى الدين . وقد حدث هذا الانقسام على ما ترى منذ زمن بعيد . فان اولئك الفتيان والفتيات الذين اسسوا هذه الجمهورية الصغيرة بعد اشتغالهم بزراعة الارض واتقان المصنوعات اصابوا نصيباً من الثروة والسعة . فلما تزاوجوا وتكاثروا جاء ابناؤهم ارقى منهم واكثر ميلاً الى الشؤون النفيسة . فعكف بعضهم على التجارة و بعضهم على العلم و بعضهم على الادب وبعضهم على الدين — كل بحسب استعداد نفسه وقابليتها . فلم يمرّ زمن طويل حتى قام النزاع بينهم على ساق وقدم . فارتأى بعض منهم زيادة في توسيع المعيشة على السكان ان ينشئوا بلدتين اخريين قريبتين من البلدة الاصلية . ثم رغبةً في حصر النزاع في مكان واحد او منعاً للنزاع قرروا ان تسكن كل طبقة في بلدة . فطبقة المال تسكن في البلدة الشرقية وطبقة العلم في البلدة الغربية وطبقة الدين في البلدة الجنوبية . ولكنَّ هذا التدبير قد ذهب سدى بلا جدوى لانَّ النزاع ما زال قائماً بينهم

الفصل الثاني



الحب

في قلب لم يعرف الحب

وكان الشاب الذي القى على عمه الشيخ تلك الاسئلة في نحو الثلاثين من العمر وقد جاء سائحاً لمشاهدة هذه المدن الثلاث التي سمع بها من بلده . وكان رجلاً قد درس علوم المتقدمين والمتاخرين ووقف على المبادىء القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة . فلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لان حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها و بناؤها قائم على القوة والعنف . ولا المدنيات الحديثة كانت ترضيه لانها جعلت الحياة عراكاً هائلاً وجهاداً عظيماً بين الناس . وكان وهو في المدرسة قد لح في ذهنه عصراً يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبي و يسميه كتاب المسيحية عصر الفردوس الارضي فبقي منه في فكره

اثر كان يحضر فيه كلما رأى زحام الحياة وجهادها بين افرادها . فلما سمع بهذه المدن الثلاث ومعيشة سكانها في وسط الطبيعة معيشة خالية من ادران الاجتماع ورذائله خيل له انها بداية العصر الذهبي الموعود به الانسان في الارض (١) فقال في نفسه: فلنذهبن لمشاهدة تلك البقعة التي ابتدأ بها العصر الذهبي فانه قد آن للانسانية في الارض ان تصل اليه وتجد شيئاً من الراحة بعد جهاد القرون الماضية

لكن لما سمع الشاب ما حدثه به الشيخ عن نزاع تلك المدن الثلاث سقط امله وخاب ظنه . على انه كان من الذين يستفيدون من كل شيء . فقال في نفسه : انني مولع بدرس كل ما له علاقة بتنازع المال والعلم والدين . فربما قدرت في هذه المرة على اكتشاف اسرار جديدة بهذا الشان . بل ربما كان تنازع هذه المدن الثلاث المنصوبة احداها تجاه الاخرى كمنجانيق للحرب مؤدياً الى حل لهذه المشكلة القديمة

وبينما كان الشاب يفكر في هذه الامور واذا سأله الشيخ : متى تدخل الى هذه المدن ياولدي حليم . فاجاب الشاب : سادخلها غداً . فقال الشيخ وهل تعرف فيها احداً يا بني . فتنهد حليم واجاب مبتسماً كلا . فقال الشيخ : لقد رابني في جوابك شيئان . تنهدك وابتسامك فاصدقني . فزاد حليم في الابتسام وقال : وما يمنع من ان اصدقك لو كنت اعرف فيها احداً

الا ان حليماً لبث بعد هذا الجواب مبهوتاً . وقد تنهد هذه المرة تنهداً لم يدع عمه الشيخ يشعر به وشخصت عيناه حينئذ الى المدينة الشرقية — مدينة المال . ثم انتقلت من مدينة المال الى حديقة واقعة تجاه القرية على شاطئ النهر عند مدخل السهل . ولما وقع نظره عليها اغمض عينيه كما يغمضها من لا يريد ان ينظر ما امامه او من يريد ان ينظر في داخله صورة نفيسة مخبوءة فيها . وكان غرض حليم الامرين معاً

وكان مع حليم رفيق اكبر منه سناً واضخم منه جسماً . فلما شاهد حركاته هذه ابتسم له . فتوردت وجنتا حليم لهذا الابتسام لانه فهم معناه . فخشي رفيقه ان يكون قد اساء اليه بهذه الاشارة فمال نحو اذنه وهمس فيها قائلاً على سبيل المداعبة : اما تظن ان العصر الذهبي قد ابتدأ

فازدادت حمرة جميل واجاب صديقه ضاحكاً : مهما كان في عبارتك من التهكم فانها مقبولة لانها اختراع جميل

فقال له صديقه على سبيل المداعبة ايضاً : انت اجمل يا صاح . ولكن لا تله نفسك

(١) ملكوت الله

الآن بهذا الكلام عن الامور المهمة — ثم اشار نحو الطريق

فلفت جميل نظره الى حيث اشار صديقه فتمشي قلبه في صدره لمنظر رآه بعيداً . ذلك انه شاهد خمسة جياد عليهن خمس فتيات يركضن عليهن خبباً . فطار نظره في الحال الى التي تلبس ثوباً ابيض بينهن . فرآها تسير في الوسط وهي اخفهن حركة وجوادها اسرع خطى . فلبث شاخصاً نحوها . اما صديقه فتركه في مناجاته ولم يزعجه هذه المرة بالمزاح الثقيل لانه كان يعلم ان النفوس الحساسة المخلصة لا تطيق المزاح احياناً في بعض الاشياء . ذلك ان المزاح سهم يخدش دائماً وان كان خدشه خفيفاً . والرجل الكريم يغار على ما هو نفيس عنده ومحبوب ان يُخدش حتى بوردة . ومن الغريب ان سوءالاً واحداً كان في تلك البرهة يشغل فكر حليم وفكر صديقه معاً . وهذا السوءال هو . هل تلتفت الفتاة الى النافذة ام لا . الا ان حليماً كان يشك في التفاتها . واما صديقه فانه كان على يقين منه . ذلك لانه راى منها في البستان الذي شاهداها فيه مع رفيقاتها قبل وصولها الى هذه القرية ما لم يرَه حليم منها . وكانت عالمة انهما سينزلان في ذلك المنزل . ولكن مع ذلك صدق ظن حليم وخاب ظنه هو . فمرّت الفتاة مع رفيقاتها في الطريق البعيدة دون ان تلتفت الى النافذة

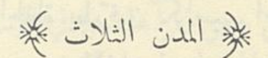
وكان حليم شاباً كريماً . وكان قد صرف عمره في مطالعة الكتب وانتقاد احوال الاجتماع . ومن سوء حظه لم تعرض في طريقه فتاة تريه خطأ ذلك الانتقاد . ولذلك كان حليم الى تلك الساعة بلا حب . ولكن لا يجب ان يُستدل بهذا القول على ان قلبه كان جامداً كالحجارة ولذلك لم يتحرك قبل الان . كلا . ان قلب حليم كان بسلاسة الماء ولطف النسيم ولين الشمع . ولكنه لم يكن يجد في طريقه من تقدر ان توءثر عليه وتحرك هذا القلب . فهل الذنب ذنبه في هذا الامر ام ذنب الناس . وكيف تريدون من النار ان تشتعل اذا لم يكن هنالك حرارة الاشعال او من الحديد ان يُجذب اذا لم يكن هنالك مغناطيس للجذب . وقد كان يُقال له احياناً : كيف يمكن ان تحب وتتزوج اذا بقيت بعيداً عن الناس كما انت . هل الحب هواء يطير ويدخل في الاجسام ليأتيك وانت بعيد عنه بين المحابر والالوان والاقلام . كلا . اذاً فعاشر وساير ان رمت ان تحب . اما هو فقد كان يجيبهم باسماً : انني من الذين يقرأُون الرسالة من العنوان ويعرفون الشجرة من الثمرة . فانا في وادٍ ونساوءكم وبناتكم في وادٍ . على انني لست الوم النساء اذا لم يفهمن اخلاقي وعواطفي ما دام الرجال انفسهم لا يفهمونها . فالانفراد عن هذه الهيئة الباطلة الكاذبة التي نعيش

فيها غير مبالين بها ولا بمسراتها ولا بآمالها — لانها تختلف عن مسراتنا وآمالنا — خير من الانضمام اليها وسريان عدواها الينا

ولذلك كان حليم يقابل السيدات بلا مبالاة ولا مجاملة كما يقابل الرجال . وبينما كنت ترى جميع الشبان في الحفلة يطوّفون بكراسيهم اجمل السيدات والبنات ويبذلون جهدهم في خدمتهن كأنهم كلاب صيد لاشان لهم في الجلسة الا احضار ما يطلبنه اوندامى لا غرض لهم الا بسطهن وتسليتهن — كنت ترى حليماً جالساً في زاوية يضحك من اولئك وهؤلاء ويتسلي بمراقبة الحركات الباردة والكلمات الشاردة والنظرات المجاهدة — وعند كل واحدة منها كان يضحك في نفسه ويقول : ما اكذبك ايها الانسان

ولكن لما قدم حليم في هذه المرّة الى هذه القرية قاصداً السياحة في المدن الثلاث ووجد في طريقه قبل الوصول الى القرية تلك الفتاة بين رفيقاتها — تغير وجه المسالة في نظره . والغريب ان هذا الوجه قد تغيرّ بلا سبب مغير اي من غير ان يحادث حليم هذه الفتاة ويختبر اخلاقها ليعرف ما وراء جمالها وهل هي ارقى من بنات بلده حقيقة لتستحق ميله وحبه . فهل ترى كان ذلك التغيير من تاثير السفر على الاخلاق لانه يهيئها لقبول كل تاثير يعرض لها لانها تكون في حاجة اليه في غربتها ؟ ام ذلك لميل النفوس دائماً الى البعيد ونبذها القريب المالوف طبقاً لقول العامة « الدير القريب لا يشفي » ؟ ام ذلك لان عواطفه المضغوطة في قلبه قد وجدت هذه المرة منفذاً ففاضت رغماً عنها اذ طال بها عهد انتظار الحب وهو لا ياتي ؟ ام ذلك لان علم حليم بان تلك الفتاة من احدى المدن الثلاث قد جعل لها في نفسه مكاناً سنياً في الحال فنظر اليها بعين الكمال بعد ان كان ينظر الى بنات جنسها بعين النقص ؟ ام ذلك لان كهربائية حليم وكهربائية الفتاة قد اتحدتا لاول نظرة لانهما خُلقا ليتحدا معاً طبقاً لاعتقاد بعض المتقدمين بان الله يصنع النفوس انصافاً انصافاً وان الحب هو عبارة عن وجود النفس نصفها الثاني المكمّل لها ؟

الفصل الثالث



المدن الثلاث

مدينة المال · مدينة العلم · مدينة الدين

وفي صباح اليوم الثاني استعدَّ حليم ورفيقه صادق للدخول الى المدن الثلاث · فنهض حليم الى ثيابه يصلحها بتأنق خلافاً للعادة · فنظر اليه صديقه وابتسم · فعبس حليم قليلاً وقال له · يظهر ان صحبتك ستكون ثقيلة قليلاً بعد الآن · فاجابه رفيقه : قل ما تشاء في ذمي ولومي ودعني ارى فيك ما لم اره ُ قبل الآن وهو اهتمامك بظاهرك · فقال حليم وقد رام تغيير الحديث : بأَي مدينة نبتدئ · فابتسم رفيقه واجاب : هل من حاجة للسؤال فاننا سنبدأُ بمدينة المال · ففهم حليم حينئذ انه انتقل من الرمضاء الى النار فاجابه ضاحكاً ومتورداً خجلاً : حقاً انك لا تستطيع ترك المزاح

وما طلعت الشمس في ذلك النهار تبعث الى الخليقة حرارتها المحيية ونورها المنعش حتى خرج حليم وصادق من القرية وقصدا المدن الثلاث · فوجدا في الطريق الزراع خارجين الى حقولهم وبساتينهم والرعاة يسوقون مواشيهم الى مراعيها الخصيبة وفي مقدمتها ومؤخرتها الكلاب لحراستها وهم سائرون وراءها في ايديهم قصب رخيم الصوت ينفخون به نفخاً يذكّر السامع نفخ زمار الرعاة في جبال لبنان واوديته او غناء الرعاة في عصر الاله ابولون لما نزل الى الارض وجعل نفسه راعياً وعلَّم الرعاة اناشيد الآلهة · ثم سارا بضع خطى فوجدا اعمى يستعطي جالساً تحت سياج بستان على الطريق ووراء السياج في داخل البستان رجل في يده كيس كبير يملأُه من الثمار والقلق بادٍ على وجهه مما يدل على انه يسرق تلك الاثمار · ثم بعد برهة شاهدا صياداً يطارد الطيور **ليصطادها** رغبة في لحمها ويترك بعد ذلك صغارها تنتظرها في اعشاشها حتى تموت برداً **وجوعاً** · وبعيداً في رأس شجرة منفردة صبي لا يتجاوز عمره عشر سنوات ينصب قضبان دبق **للطيور** ليمسكها بها · وقريباً من هذه الشجرة رجلان كل منهما آخذ بخناق رفيقه وهما يشاتمان ويتضاربان **بحدة** وجنون كانهما كلبان يقتتلان على عظمة · وفي الجانب الآخر وراء جذع شجرة فتى يرافق فتاة لا هي اخته ولا هي نسيبته ··

فلما شاهد حليم هذه المشاهد قال في نفسه باسماً : نحن في وادٍ والعصر الذهبي في وادٍ . فان هذه المصائب والقبائح تدل على اننا قرب مدن كالمدن المألوفة الاعتيادية

وبعد المسير نحو ساعة وصل الصديقان الى مدينة المال . فدخلا اليها بلهفة وشوق ليروا داخلها

وكانت هذه المدينة اكبر المدن الثلاث واوسعها . وكانت ممتازة عن المدينتين الاخريين بقصورها الشاهقة ودورها الباذخة وجنائنها المحيطة بمنازلها . فلما اخذ حليم ورفيقه يجولان في اسواقها وشوارعها لم يكونا يسمعان الا نداء الباعة واصوات التجار ورنين المال يُدفع او يُقبض ودوي اصوات البضائع تُحمل او تُنزل . ونظر حليم الى اهلها نظر منتقد فرآهم باجسام سمينة وعيون هائمة لا تستقر في مكان لالفتها النشاط والحدّة والتفتيش وثياب نظيفة مرتبة تدلّ على سعتهم . فخيل له انه بين قوم سعداء يعلمهم اقوياء بنشاطهم وجدّهم . لكنه كان من الذين لا يكتفون بظواهر الاشياء للحكم عليها حكماً سديداً . فقال في نفسه سنرى النتيجة بعد زيارة المدينتين الاخريين

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً كان يفتش بعينيه كثيراً عن فتاته لعله يلمحها في نافذة مفتوحة او شرفة او حديقة . ولكن تعبه ذهب بلا جدوى . فانه كان يرى في النوافذ والشرفات والحدائق والطرق كثيرات من الحسان وكلهن كأنهن اقمار فوق اغصان بان . الاّ انه لم يقف على اثر لحسنائه . فكان كلما رأى حسناء وظنها اياها ثم ظهرت له خيبة ظنه يردد قول للشاعر

أليس عجيباً ان نكون ببلدةٍ كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلّمُ

وبعد ان جال حليم وصديقه في مدينة المال ساعتين خرجا منها الى مدينة العلم . فمرّا في طريقهما اليها بالحديقة العظيمة الواقعة بين هذه المدن الثلاث وهي ملتقى اهلها ومجمعهم ومتنزههم . فشاهد فيها جميل ورفيقه رهباناً وقسساً وشيوخاً وائمة ورجالاً وشباناً يحملون بايديهم كتباً وصحفاً وهم تارة يقرأون فيها وطوراً يتأملون وآونة يتذاكرون . فقال حليم لرفيقه هذه طلائع مدينتي العلم والدين . ثم مرّا قاصدين مدينة العلم دون ان ينتبه اليهما المقيمون في الحديقة

ولما وصل جميل ورفيقه الى مدينة العلم وجدا السكون والهدوء مخيمين عليها حتى انك لتسمع حين مرورك في الشوارع طنين الذباب في طيرانها . وكانت منازلها صغيرة حقيرة وشوارعها ضيقة . فارتاحت نفس جميل لما وجده من الهدوء فيها وقال : اين نحن من جلبة

تلك المدينة . غير ان البياض اذا اشتدّ صار برصاً . ولذلك لم يوغل جميل في المدينة حتى صار ذلك الهدوء التام ثقيلاً على نفسه . فانه لم يكن يسمع حركة ولا يرى شخصاً في الشارع ولا يلمح يداً ولا وجهاً في النافذة . فكان كانه في مقبرة او مدينة اموات لا احياء . الا انه كان احياناً في مروره ببعض المنازل يرى شاباً مستلقياً على سريره وكتابه في يده او رجلاً يروح ويجيء في غرفته وهو يفكر ويتأمل كأنه متجرّد عن هذا العالم. او قارئاً كتابه في يده ولكن فكره يسبح بعيداً في الفضاء الابدي

ولو لم يكن حليم ممن الف هذه الحالات واحبها لداخلته خشية منها وعراه نفور عنها . لان هذا الهدوء هدوء الاموات وذلك الانقباض البادي في وجوه النفر الذي رآه لما يبعث في النفس شعوراً رهيباً لمعرفتها ان ما يقع في ذلك الحين في وسط ذلك الهدوء الشديد مع ذلك الانقباض الاليم يجب ان يكون امراً رهيباً خطيراً تقف عنده النفوس رهبة واجلالاً . والنفس غير مخطئة في شعورها هذا لان ذلك الامر هو عبارة عن عراك ونضال بين الارض والسماء . والمعلوم والمجهول . والمادة والروح . والمحدود وما لا حد له . ذلك ان الانسان الترابي القاصر الضعيف يطلب الوصول بفكره الى الذي لا يصل اليه فكر والعقل المحدود يروم الاستيلاء على العقل الذي لا حدّ له

وبعد ساعتين خرج حليم ورفيقه من مدينة العلم وقصدا مدينة الدين . وكان حليم يمشي وفكره مشغول للعواطف التي قامت في نفسه حين مروره في مدينة العلم . فهناك تجدّدت هواجسه كلها وبلغ اضطرابه معظمه . هناك كان ينتظر ان يرى العلم ضاحكاً باشاً لانه وجد ضالته فاذا به يراه كما عهده منقبضاً مظلماً يطلب ويفتش عبثاً . فانقبض صدر حليم ونسي في هذه الدقيقة حسناءه نسياناً حقيقياً . ومن هنا تقدر ان تستدل على اخلاق هذا الشاب استدلالاً مهماً وتعرف السبب الذي جاء من اجله الى هذه البلاد . فان الناس يضعون عادة حبهم فوق كل امر . وقد وضعه الملوك مرات كثيرة فوق تيجانهم وعروشهم . اما حليم فلم يكن يعرف احبّ اليه من ان يعرف (١)

ولكن لم يلبث حليم ان دنا من مدينة الدين . وكان يسير اليها وهو مطرق مفكر بكل ما في فكره من القوة . ولكنه ما قرب من باب المدينة حتى سمع اصواتاً شقّت الفضاء وانا ساً بانغام رخيمة يصيحون من اعالي المآذن ــ الله اكبر الله اكبر . لا اله الا الله . فالتفت حليم بغتة وقال هل وصلنا ؟ ثم سرّح بصره في المدينة التي امامه . وكان حينئذ دخول

(١) في الحديث « لا يكمل ايمان المرء حتى لا يعرف احبّ اليه من ان يعرف »

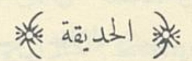
الظهر والمؤذنون يدعون في المآذن الى الصلاة . فلبث جميل يتأمل فيهم من بعيد بلذة لا توصف وهو يتبع كل حركة من حركاتهم . وما كاد ينتصف الاذان حتى علت اصوات الاجراس ايضاً من قبب الكنائس . فامتزجت اصوات الاذان باصوات الاجراس تذكّر البشر في الارض بالخالق جلّ جلاله وتنبههم الى واجباتهم وتنذرهم بانهم ضيوف في هذا العالم . اما رفيق حليم فانه ضحك وقال : في بلادنا تستمرّ الصلاة الى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر في يوم الاحد اما في هذه البلاد فالظاهر انها تستمرّ الى الظهر . غير ان حليماً لم تكن نفسه مستعدَّة للضحك في تلك الساعة لانها كانت تفكر في موضوع ارفع واسمى . فسرّح نظره في مدينة الدين بين اصوات المؤذنين الشجية ونغمات الاجراس الرخيمة التي تناجي السماء فراقهُ جمال هذه المدينة بجوامعها الخريفة الجميلة ومآذنها الانيقة وكنائسها وقبابها المبنية اجمل بناء . وصار يقول في نفسه : هذه مدينة السلام لكثيرين من الناس . هنا مستقرّ السعادة والراحة لملايين من البشر . هنا وطن الاخاء والحب والحرية والسواء . هنا مدفن احقاد الانسانية ومصائبها ومتاعبها وصغائرها لو كانت تعلم

ولما دخل حليم الى مدينة الدين استغرب ما رآه فيها من آثار الثروة والنعمة والغنى . فانّ جوامعها وكنائسها ــ وكلها كانت كنائس وجوامع ــ كانت مبنية باتقان وزخرف يستوقف النظر . وكانت شوارعها فسيحة فيها الناس يروحون ويجيئون الى الجوامع والكنائس ومنها . وهم بين رجال ونساء بافخر زينة

فبعد ان جال جميل ورفيقه ساعة في المدينة وشاهدا ما فيها قال لرفيقه : لقد شاهدتُ الآن ما اردت مشاهدته من هذه المدن فهلمّ بنا الآن نذهب الى الحديقة التي هي مجمع اهلها ومتنزههم فقد بقي علينا الوقوف على دخائلها بعد ان وقفنا على ظواهرها

فقال صديقه ولكن الحديقة تكون خالية في وقت الظهر فاجل الى المساء دخولنا اليها وهلمّ بنا الآن الى فندق لنتغدى ونستريح فقد تعبنا

الفصل الرابع



الحديقة

والظاهر ان حليماً ورفيقه قد ناما قليلاً في الفندق بعد الغداء ولذلك لم يخرجا منه الا بعد العصر . فاقبلا نحو الحديقة وكانت غاصة بالناس من كل الطبقات

وكان في الحديقة ثلاث قاعات كبرى كل واحدة منها قائمة في احد جوانب الحديقة . فكان كل فريق من سكان مدينة العلم والدين والمال يجتمع في احدى هذه القاعات للبحث في شؤونهم واحوالهم . فكانت قاعة اهل المال عباره عن بورصة صغيرة وقاعة اهل العلم عبارة عن مكتبة كبيرة . وقاعة اهل الدين نصفها مكتبة ونصفها تجتمع للحديث

فلما دخل حليم ورفيقه الى الحديقة شاهدا الناس منتشرين في اطرافها بين اشجارها الجميلة وازهارها العطرية واكثرهم يتحادثون ويتجادلون بحدَّة . غير ان دخول هذين الزائرين الغريبين الى الحديقة نبَّه المتنزهين فيها اليهما فصاروا يقلبون انظارهم في هيئتهما وملابسهما . فقال حليم حينئذ لرفيقه : ان القوم قد التفتوا الينا فاذا سألك احد عن اسمي فقل له انني ادعى جميلاً وصناعتي التجارة وقد جئنا نستبضع من مدينة المال . واياك ان تذكر لاحد اسمي فانني اكره الرسميات في سياحتي هذه

وبينما كان حليم يوصي رفيقه بهذا الامر على مقربة من قاعة اهل العلم كان ثلاثة شبان وقوفاً قرب هذه القاعة وهم يتفرسون بهما جيداً . ثم سُمع احدهم يقول لا شك انه هو لانني شاهدتُ صورته قبل اليوم في احدى مجلاتنا . فقال الآخر لا يبعد ان يكون هو بعينه فان منظره اللطيف الهادئ لا يُكذّب شهرته الواسعة . وحينئذ انفرد المتكلم الاول عن رفيقيه وسار نحو حليم وصديقه بخطى واسعة وهو يبتسم

فلما رآه حليم قادماً بهذه الهيئة لم يشك في كونه قادماً لمخاطبته فتشاغل عنه بمحادثة رفيقه . اما الشاب القادم فانه لما صار على مقربة منه مدَّ يده اليه مسلماً وقال باحترام وبشاشة : ارجو ان تسمح لي بسؤال ياسيدي . هل تريد ان تشرّفني بمعرفتك . فتلعثم حليم قليلاً لانه كره الكذب ثم اجاب : نحن ضيوف يا سيدي في المدن الثلاث الجميلة وقد جئنا لمشاهدتها والاستفادة من اهلها الكرام . فقال الشاب نعم لا ريب عندي في انكم ضيوف ولكني اول ما وقع نظري على جنابك تذكّرت انني شاهدت هذا الوجه قبل الآن

في احدى مجلاّتنا . أَلست جنابك الخواجا حليم المصوّر الطائر الصيت

فلما رأَى حليم انهم عرفوه ضحك واجاب : ان ذكاءكم في هذه البلاد غريب ياسيدى فانكم تعرفون الرجل من غير ان تعرفوه

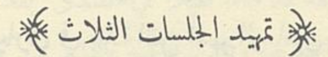
فلم يتمالك الشاب ان عاد وثباً الى رفيقيه واخبرهم ان ذلك الضيف هو المصوّر حليم نفسه . فانتشر هذا الخبر بسرعة البرق في الحديقة كلها . فصار الناس يتداعون لمشاهدة الرسام الطائر الصيت الذي بارى في هذا الفن اشهر الرسامين وطارت شهرته في جميع اقطار العالم . ولم تمض دقيقتان حتى اجتمع كل من في الحديقة من اهل العلم والمال والدين حول حليم ورفيقه وصارت الاعناق تتطاول اليهما من كل صوب . فازداد الورد في وجنتي حليم خجلاً من ذلك لانه كان كثير التواضع قليل الجرأَة على مقابلة آلهة الشهرة . ولكنه لم يكن ضعيفاً الى حد الجبن . ولذلك رفع رأْسه بعد ذلك الحياء بجرأَة وبشاشة وحيّا بهزّ رأْسه باسماً . وكان الجمع الذي حوله في حركة في ذلك الحين ثم انفرد منهم خمسة بينهم رجال من اهل المال والعلم والدين وتقدموا نحوه . فتبعهم باقي الجمع زاحفين نحو حليم كالجند وهم كالبناء المرصوص . فخطا حينئذ حليم نحوهم بخطى واسعة وهزّ الايدي التي كانت تمدُّ اليه من كل جانب كانها اغصان مشتبكة

ومنذا هذا الحين فقد حليم نصف لذة السفر لانه صار مقيداً بعد ان كان مطلقاً يروح ويجيء كما يشاء . الا ان خسارته هذه لا تعادل الفائدة التي استفادها في ساعة واحدة بعد ان عرفه اهل هذه البلاد . فانه صار دفعة واحدة في وسطهم فاصبح قادراً على الوقوف على كل ما اراد الوقوف عليه منهم

وبعد ان جلس حليم واستراح برهة حدثهم في اثنائها عن سفره وما شاهده في المدن الثلاث همّ بالاستئذان فدنا منه الشاب الذي كان اول من عرفه وقال : لي على جميع اخواني حق التقدم لانني كنت اول من تشرف بمعرفتك . فانا ارجو ان تتخذني صديقاً ورفيقاً لك في هذه الديار لادلّك في سياحتك . فشكر له حليم لطفه وادبه . ثم نهض يطلب الخروج من الحديقة وكل جوارحه تتمناه . فهمس ذلك الشاب في اذنه قائلاً : أَلا تحضر الاجتماع الليلة في الحديقة . فقال حليم واي اجتماع . فقال الشاب : ان الليالي الثلاث القادمة ليالي في غاية الاهمية . فان السكان عزموا على الاجتماع فيها ثلاث مرات لحلّ بعض المشاكل التي بينهم والتي هي سبب النزاع والخلاف بين طبقاتهم . ولا ريب انّ خراب مدننا الثلاث وعمرانها يتوقفان على نتيجة هذه الاجتماعات . والليلة الاولى مخصوصة بالمال .

والليلة الثانية بالعلم · والليلة الثالثة بالدين ـ فقال حليم ساحضر هذه الاجتماعات لا محالة · ثم ودّع وخرج مع رفيقيه وهو يقول في نفسه انه قد جاء في احسن الاوقات واهمها

الفصل الخامس



تمهيد الجلسات الثلاث

«رجاء الشيخ الرئيس»

وشكاوى اهل العلم والدين والمال

وفي المساء برزت الحديقة بالانوار الساطعة واقبل الناس عليها من الجهات الثلاث واكثرهم سكوت كانهم يفكرون في امر عظيم · وكانت اشكال ملابسهم تدل على انهم من طبقات مختلفة بين تجار وعمال واهل علم واهل دين · وكان كل فريق مشغولاً عن الفريق الآخر بمناجاة حزبه همساً استعداداً للجدال العلني الشديد · وما دخلت الساعة التاسعة مساء حتى غصت الحديقة بالناس على اتساعها وجلسوا ينتظرون · وكان حليم ورفيقه قد اختارا مقعداً في زاوية مظلمة قريبة من دكة الرئيس فكانا يشاهدان الحاضرين دون ان يشاهدهما احد

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الاولى جلس رئيس ذلك الاجتماع على كرسيه وهو رئيس جمهورية المدن الثلاث · وكان شيخاً جليلاً في نحو الثمانين من العمر وهو بقية الشيوخ الذين عاصروا الشيخ سليمان مؤسس هذه المدن · فلما سكنت الضوضاء اخذ يقول

ايها الابناء الاعزاء

قد عزمتم على عقد ثلاثة اجتماعات كبرى لتتباحثوا في مسائلكم المهمة والمشاكل التي نغّصت عيشكم وعطّلت اشغالكم وقسمت قلوبكم وعيالكم · فيسرّني انا حاكمكم وابوكم ان تؤدي هذه الاجتماعات الى قطع كل ما بينكم من اسباب النزاع والخلاف حرصاً على سعادتكم وعلى عمران مدننا الثلاث التي تعبنا في انشائها وترقية شؤونها · انما قبل الشروع في المباحثة اتمنى من صميم قلبي امراً · وهو ان يجتنب كل فريق منكم في اثناء كلامه كل قول يسوء الآخر فان الانسان يستطيع ان يصرّح بادب ولطف بكل ما توجب عليه مصلحته التصريح به · ولا يجدي العدوان والشدة نفعاً · وانني اسال الله ان يوفق اعمالكم ويسدّد آراءكم وينير عقولكم

فهنا حصلت ضجة بين بعض من اهل العلم · فانتصب رجل من فريق الدين وقال بصوت جهوري : ماذا ؟ هل صرتم تكرهون ان تسمعوا اسم الله ايضاً · فصرخ خمسون عاملاً من العملة كانوا جالسين قرب فريق اهل العلم : كذاب كذاب · فانتصب حينئذ احد هئولاء وكان اقربهم الى العملة وقال مخاطباً فريق اهل الدين : لا تبدأوا بالعدوان اذا كنتم مخلصين في طلب المسالمة · فقال الشيخ الرئيس حينئذ :

— لستُ اجهل سبب الضجة التي حصلت بين بعض من الابناء · فانهم لا يزالون يطلبون ترك المسائل الدينية للجوامع والكنائس ولذلك لا يجيزون لحاكمهم ان يلفظ عبارة دينية في منصبه الرسمي · وانا على ثقة من ان ذلك لم يكن منهم عن انكار للمسائل الدينية بل عن رغبة في الفصل بين شوءون المذاهب المختلفة · ولكني اظن انهم يُجيزون لشيخ بسني صار قريباً من القبر ان يستسلم لعواطفه احياناً

ثم قال الرئيس

— اما الآن فاننا نسمع الشكاوى التي اجتمعنا للنظر فيها بصدق وحسن نية · ولنعلمن قبلُ نوعها وتفصيلها

فنهض حينئذ زعيم العملة وقال

— ان شكوى العمال من طمع ارباب الاموال · فالعمال يتعبون ويجنون وارباب الاموال يتمتعون بتعبهم ويتلذذون · فمن العدل ان يشارك اولئك هوءلاء في كل الاشياء

فنهض النائب عن ارباب الاموال وقال

— ان شكوى ارباب الاموال لم تكن من العملة انفسهم فاننا نحبّ عمالنا كما نحبُّ اولادنا · كيف لا وهم رفقاوءنا وشركاوءنا في اعمالنا · وانما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا ويحرّضون طبقتهم على طبقتنا · فلتفصل الحكومة العمال عن هوءلاء المحرّضين فيستتب السلام بين الجميع

فنهض رجل من فريق العلم وقال

— اذا صحّ انه متى رُفعت يد الذين يُسمونهم « محرضين » من بين العمال واصحاب الاموال فان السلام يستتبُّ في الحال فقد زال نصف شكوى اهل العلم · وانما يبقى عليهم في هذا الموضوع ان يبحثوا هل يرافق السلام الذي يحصل حينئذ هناء العمال وراحتهم وسعادتهم ام يبقى سلامهم موتاً ادبياً ومادياً كسلام اهل القبور · واننا معشر اهل العلم نفتخر في هذا العصر باننا حللنا في هذه المسألة محل اهل الاديان وصار همنا الاول التفكير

بانهاض الشعوب وترقيتها بينما نرى اهل الاديان يسلمون الشعوب بايديهم الى الاطماع المختلفة . فكان مثلهم مثل ملوك يخلعون انفسهم بانفسهم . ولذلك تراهم يكثرون من التزلف للاغنياء وارباب الاموال ويجارونهم في كل شيء حتى في ما يخالف مبادئهم الدينية وينقض اساسها ويلهون الشعب في اثناء ذلك بالتدجيل عليه ليشغلوه بالاوهام والاحلام عن مصالحه الحقيقية . فغرض العلم في هذا الزمان تفتيح عيني الشعب وترقية احواله والضرب على ايدي المدجلين . وشكواه من كل من يحاول منعه من الوصول الى هذا الغرض الشريف

فهمس حينئذ واحد من اهل العلم كان قريباً من الخطيب في اذن جاره قائلاً : ليت اصحابنا انابوا عنهم خطيباً اكثر اعتدالاً من هذا الخطيب فان مقاماً كهذا المقام لا يفيد فيه غير التأني والاعتدال . اما رأيت السياسة التي اتخذها نائب ارباب الاموال

وكان قد نهض نائب فريق الدين فقال

— اما شكوانا نحن خدمة الله تعالى فمن اولئك الكفرة الجاحدين الذين يبثون روح ضلالهم وكفرهم في النفوس . فاننا والحق يقال لولاهم لكنا كلنا في الف نعمة من الله تعالى . فانهم بدأوا ضلالهم بيننا بتعليم اولادنا مبادئهم الطبيعية الممقوتة والعياذ بالله . ثم تدرَّجوا منها الى انكار المذاهب المختلفة فالوحي فوجود الخالق سبحانه وتعالى . فما دام هؤلاء المفسدون يفسدون عقول الناس فلا سلام ولا راحة عندنا

فقال الشيخ الرئيس حينئذ : نعم هذه هي الشكاوى المختلفة التي مرَّ عليَّ عشرات سنوات وانا اسمعها . فاستحلفكم بكل ما هو عزيز ومقدس لديكم . استحلفكم بالشيخ الجليل المحسن الى هذه المدن والواقف الآن بيننا في وسط الحديقة على تمثاله الرخامي يسمع كلامنا وينظر الينا — ان تكسروا حدتكم قليلاً وتتباحثوا في مشاكلكم بسلام وادب . فاننا كلنا يا ابنائي اخوان . وكلنا في هذه الارض ضيوف وغرباء

اجارتنا انا غريبان ههنا   وكل غريب للغريب قريبُ

وانتم تعلمون ان الانسان لا يعيش في الارض عمرين وان ايامه فيها معدودة . فلماذا لا يصرف هذه الايام بما يدعو الى الراحة بدل ان يصرفها في خصام صبياني . هل ان حطام الدنيا وخيراتها الزائلة ومسراتها الفانية تستحق هذا الاقتتال الشديد عليها . اما سمعتم ذلك القول البديع المنسوب لحكيم عظيم (١)

« ١ » فيلسوف العرب والعجم ابي نصر الفارابي

اخي خلِّ حيّزذي باطلٍ وكن للحقائق في حيّزِ
فما الدار دار مقامٍ لنا وما المرء في الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على اقلَّ من الكلم الموجز
وهل نحن الاَّ خطوط وقعن على نقطة وقع مستوفز
محيط السماوات اولى بنا فماذا التنافس في مركز

فتباحثوا الآن في مسائلكم واذكروا ان عمران مدننا وخرابها متوقفان على نتيجة بحثكم . ولنبدأ اولاً بمشكلة العمال وارباب الاموال وان كانت هذه المسائل كلها مرتبطة بعضها ببعض

الفصل السادس

الجلسة الاولى

المال ومشاكله

فساد حينئذ في الحديقة سكوت تام لم يُسمع في اثنائه سوى حفيف الاوراق وهمس بعض السيدات اللواتي كن جالسات على مقعد في زاوية مقابلة للزاوية التي جلس فيها حليم ورفيقه . وكان حليم قد بدا يرمي ببصره الى هؤلاء السيدات منذ لمح وجودهن هناك لعله يجد ضالته بينهن

دعوى زعيم العمال

و بعد دقيقة تقدم زعيم من زعماء حزب العمال وقال مفتتحاً البحث

– لقد احسنتم في تخصيصكم الجلسة الاولى بمشاكل العمال واصحاب الاعمال لان هذه اكبر المشاكل في الحقيقة . ومتى حللناها حللنا معها سواها . ولكن لا سبيل الى حلها الا بطريقة واحدة . وهي إشراك العمال في ربح الاعمال . فاننا الآن نخدم اصحاب الاعمال كما يخدم العبد سيده . واسعدنا حظاً واعظمنا قدرًا يتناول في الشهر مائة فرنك . اي يأخذ في السنة اجرة لعمله ١٢٠٠ فرنك . فاذا افترضنا ان عددنا في العمل ٣٠ عاملاً كان مجموع ربحنا جميعاً في العام ٣٦ الف فرنك . على حين ان ذلك العمل يربح في كل عام مليون فرنك ربحاً مجردًا . وكل هذه القيمة تذهب وتنصبُّ في صندوق صاحب المعمل مع اننا نحن

السبب في ربحها · فاية عدالة عند الله والناس تُجيز هذا الامر · واي دين يرضى بان يسعى مائة وواحد يأْكل

« ولكن فلنترك مسأَلة الربح جانباً ولننظر الى مسأَلة اخرى · وهي ان بين العمال المستخدمين قوماً لا يتناولون في اليوم اكثر من فرنك واحد اجرة لهم · فكيف يمكن ان يكفيهم هذا الفرنك خصوصاً اذا كان لهم اولاد عليهم القيام باودهم · أَليس ذلك عبارة عن ضرب الشقاء والذلة عليهم مدى العمر

« ثم ان العامل قد يمرض وقد يعجز وقد يموت · فماذا يحل به وبعائلته اذا كان قد صرف حياته كلها في خدمة صاحب العمل ولم يعد قادراً في مرضه وفي آخر عمره ان يكسب رزقه بعرق جبينه · ايموت جوعاً هو وعائلته · ام يدور في المدينة يستعطي

« لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الانسانية والاخاء البشري ان تنصفونا فاننا نحن الاكثرية في البلاد · وبدوننا لا تقدرون ان تصنعوا شيئاً · فنحن نحارب لرد غارة العدو · ونحن نفلح الارض لنخرج منها القوت والغذاء · ونحن نخدم في دوائر الحكومة والمحال العمومية والخصوصية · ونحن ندير المصانع لصنع المصنوعات ونسج الانسجة · فحرام ان نصنع كل شيء وعلى ظهورنا تُلقى كل الاحمال ثم تترك الحكومة فريقاً قليلاً من اصحاب الاموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها ويسخر لنفسه الامة كلها

فصاح به حينئذ صائح من فريق المال

ـ ولكن ماذا تريدون ان تصنع الحكومة · هل من حقها ان تتداخل بينكم لتجبر ارباب الاعمال على زيادة اجوركم او مقاسمتكم ارباحهم · أَلا تعلمون ان لاصحاب الاموال الحق المطلق في التصرف باموالهم واملاكهم كما يريدون · وان الحكومة لا يمكنها التعرض لحق الملكية لانه من الحقوق الطبيعية التي لا تُنقض

فاجاب الخطيب زعيم العمال

ـ هذه شنشنة عرفتها من اخزم · فكأَنكم نسيتم ان هنالك مذهبين متناقضين واحد معكم وواحد عليكم · ومما يحق لنا الفخر به نحن العمال الصغار ان مذهبنا في هذه المعضلة موافق لمذهب جميع شارعي الاديان من موسى الى يسوع الى محمد · فان هؤلاء الكواكب الثلاثة الذين اناروا سماء الشرق والعالم قاطبة لو عادوا اليوم الينا لكانوا من حزبنا · ذلك لانهم يعلمون ان كل هيئة اجتماعية تُبنى على ظلم الفئة الكبرى وراحة الفئة الصغرى هيئة فاسدة ستسقط لا محالة · فاذا كان في حزبكم فلاسفة كبار وعلماء اعلام ففي حزبنا من هم

فوق العلماء والفلاسفة . ثم هل تريدون منا فلاسفة فاسمعوا رأي الفيلسوف كارل ماركس

فضحك هنا بعض فريق المال وقال احدهم

– ما شاء الله . تستشهدون باشدّ انصاركم غلوًا

فقال الزعيم

– لا بل نستشهد بفيلسوف من الفلاسفة رأيه يناقض رأيكم في الملكية . فانكم تقولون ان ارباب الاموال مطلقو التصرف في معاملهم ومصانعهم ومتاجرهم . اما نحن فنقول لكم مع هذا الفيلسوف انكم في خطاء عظيم . فان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها واراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالانهر والابحر والهواء . ولذلك لا يجوز ان تكون ملكاً لفرد ايًا كان بل هي ملك لجميع الامة . فعلى الامة اذًا ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بين ابنائها . اي ان الحكومة تجعل نفسها التاجر الكبير الوحيد الذي تحصر في يده تلك المتاجر والمصانع والمزارع وتستخدم فيها افراد الامة وتعطيهم اجرتهم من تلك البضائع نفسها اي من عين المال كلاً بقدر حاجته وكفاءته . والعامل يستطيع ان يستبدل البضائع التي تجتمع عنده باي بضاعة احتاج اليها . – هذا ما يراه بعضهم عدلاً وانصافًا . ونحن لا نطلب منكم كل هذا فاننا نترك لكم مصانعكم ومعاملكم ومتاجركم واراضيكم . وانما نطلب منكم ان تعطوا نصف ربحها في كل عام للعمال والمستخدمين الذين تخدّمونهم فيها وتبقوا النصف الثاني لكم

« ولا تقولوا اننا قد طلبنا شيئًا كثيرًا فاننا لا نطلب الا حقوقنا . لقد كرهت نفوسنا الخدمة بالاجرة كالاجراء . لقد كرهنا هذه العبودية الجديدة التي اخترعها التمدن الجديد . فاذا لم تنصفونا وتريحونا منها فاعلموا اننا نحذو حذو شمشون اذ نأخذ باعمدة الهيئة الاجتماعية ونشدها قائلين « علينا وعلى الجميع يارب » فيسقط البناء علينا وعليكم .

« ايها الاخوة . ان نور الشمس ونسيم الصباح وحنان الامهات ورغد العيش ومسرّات الاجتماع وراحة البال – كلها لم تخلق فقط لارباب الاموال . فان الله العادل خلقها لجميع البشر على السواء . ونحن معشر الفقراء المساكين من جملة البشر . فانظروا الينا وارحمونا . صدقونا ان لنا نفوسًا كنفوسكم تتألم من المصائب والفقر والشقاء . وان لنا اولادًا كاولادكم ونساء كنسائكم يجب علينا سدّ حاجاتهم . صدقونا ان الطبيعة – تلك الطبيعة القاسية الظالمة – لم تخصنا بخواص الجماد . فانها من – سوء حظنا – جعلت لنا معداً تتألم من الجوع . وقوى تخور اذا لم تُغذّ . ونفسًا تفضل الجحيم احيانًا على هذه الحياة . وهذا ما يدفعها مرارًا الى اقصى حدود الوحشية : كالفوضوية وما اشبهها . في ايديكم الآن يا ابناء

الوطن خراب بلادكم او عمرانها »

وما سكت زعيم العمال حتى قامت ضجت في صفوف اهل المال فصاح احدهم : يتهددوننا بالفوضوية · وصاح آخر : لا نخافهم فوراءنا جيش الحكومة · ولكن لم يلبث ان نهض زعيم اهل المال واشار الى رفاقه بالسكوت ثم اخذ يقول

دعوى اهل المال

ايها السادة

ــ مسألتنا مع عمالنا مسألة قديمة منذ وجود الانسان في هذه الارض · فمنذ وجد فيها رجل نشيط قوي مدبر عامل ورجل ضعيف ساذج مهمل تسلط الاول على الثاني واستخدمه في ما فيه مصلحتهما معاً · وان هذا الاتفاق بين القوي والضعيف ــ بين الرأس المدير الآمر والجسد المدار المأمور ــ بقي وثيقاً وطيداً الى ذلك اليوم الذي قام به الحسد والطمع يحرّضان الضعيف على القوي ويغريانه بان يعطل اعماله ان لم يشاركه فيها · فالحسد والطمع سبب كل هذا الخلاف

«ولقد كان العمال قبلاً يشكون من ان اجورهم قليلة وشغلهم كثير · فانهم كانوا يعملون من شروق الشمس الى ما بعد غروبها واسعدهم حظاً كان يتناول فرنكين في النهار · فرأينا ان نخفف عنهم فجعلنا اوقات عملهم ٨ ساعات في النهار (١) وابلغنا راتب الواحد منهم الى مائة فرنك · ثم انشأنا لهم منازل صحية رخيصة الاجرة ليقيموا فيها · واعتنينا بنسائهم واولادهم في اوقات الولادة والمرض · ولكن كل هذا لم يقنعهم بل تدرّجوا من طلب الى طلب حتى وصلوا الى طلب مشاركتنا في مصانعنا ومتاجرنا ومزارعنا · فاذا اجبناهم اليوم الى ذلك فانهم لا يلبثون ان يطلبوا غداً طردنا منها ليستولوا عليها من دوننا

«فاعلموا ايها السادة انكم الان بازاء الطمع والحسد الاجتماعي لا بازاء مظالم بشرية كما يقولون · والويل لحكومتنا ولهيئتنا الاجتماعية اذا تركتموها تخضع للطمع والحسد · ولا ريب عندنا ان حرصكم على مصلحة وطنكم المرتبطة بمصلحة اهل المال والاعمال اشد ارتباط سيجعلكم تردّون دعوى العمال لا محالة

«ذلك انكم تذكرون ولا بدّ في هذا المقام اموراً عظيمة عليها تتوقف حياتنا وحياة بلادنا

---

(١) سبق البرلمان الانكليزي سائر الامم بتعيينه في العام الماضي ساعات العمل في المناجم ٨ ساعات فقط · وهذه المسألة يهتم بها العمال في كل مكان اهتماماً عظيماً · وينكرها اصحاب الاعمال لانها تعطل اعمالهم

(الامر الاول) منزلة اهل المال في الهيئة الاجتماعية · فانكم تعلمون ايها السادة اننا مصدر ثروة البلاد وحياتها · فبتدبيرنا وسعينا ننشئ المتاجر الواسعة والمصانع العظيمة والمزارع الخصيبة وندرّ على الامة بها اخلاف الثروة · ولو شئنا ان نحبس اموالنا ونقفل صناديقنا ونبطل سعينا لماتت الامة في سنة واحدة · والحكومة التي قراطيسها المالية في ايدينا تعرف ذلك حقّ المعرفة · وان قيل لكم ان العملة واهل العلم سبب هذه الثروة فاجيبوهم: لماذا اذاً لا يستغنون عنا و يتصرفون بهذه الثروة كما يشاؤون دون حاجةٍ الينا اذا كانوا صادقين · ولكنهم غير صادقين لانهم يبالغون في نسبة الفضل اليهم · فانهم بينما يكون الواحد منهم غائصاً في احلامه واوهامه يكون فكر الواحد منا حائماً حول متاجر الارض ومصانعها يفتش عن ثروة جديدة لبلاده · بينما يكون احدهم منهمكاً بكتابة مقالة على مائدته (حبر على ورق) او نظم شعر في غرفته (هباء في الهواء) فان احدنا يُسمع الامة موسيقى اجمل من موسيقى الشعر و يريها جمالاً ابهى من جمال الادب : اعني به جمال الذهب الذي ينساب من صناديقنا قناطير قناطير و ينشر الراحة والسعة والخيرات في طبقات الامة كلها · فاذا كنتم ايها السادة في غنى عن هذه القوة التي لا تعادلها في الوجود قوة فاخبرونا ذلك ولا تخجلوا منا

(الامر الثاني) حفظ مركز الامة الصناعي والتجاري والزراعي · فانكم تعلمون ان المزاحمات الصناعية والتجارية قائمة في الدنيا على ساق وقدم · والنصر النصر في هذه المزاحمات لمن يصنع المصنوعات والبضائع بارخص الاثمان · فاذا حكمتم علينا بزيادة اجور العمال وتقليل مدة العمل او اشراكهم فيه كنتم كأنكم تحكمون باقفال معاملنا ومتاجرنا لاننا بعد ذلك لا نستطيع مزاحمة المعامل الاجنبية

(الامر الثالث) حفظ شرائعنا المقدسة حفظاً مطلقاً · فان حق الملكية حق مقدس لا يجوز للحكومة مسه · ونحن بموجب هذه الشرائع مطلقو التصرف في املاكنا ومزارعنا ومتاجرنا · فاذا رامت الحكومة الضغط على حرية الملاك نقضت الشريعة والنظام نقضاً يخشى منه بعد ذلك على اساس هيئتنا الاجتماعية

(الامر الرابع) ايقاف تيار الاشتراكية عند حده · فان هذه الآفة الكبرى قد عظم خطبها وجل امرها · ولذلك طريقتان بسيطتان (الاولى) امتناع الحكومة عن المداخلة بين العمال واصحاب الاعمال لان ذلك ليس من وظيفتها (والثانية) ابطال الحكومة جمعيات العملة اي عدم معرفتها اياها رسمياً ومنع مداخلتها بين العمال واصحاب الاموال · فان

الشرّ كل الشر وارد من هذه الجمعيات التي تحرض العملة وتغرّ بهم بوعود باطلة . وهنا مهد الاشتراكية . اذ متى فرّقت الحكومة هذه الجمعيات استؤصلت جرثومة الاشتراكية لسقوط نيرها عن اعناق العمال المساكين وصار ارباب الاعمال يحلون مشاكلهم معهم بكل لطف وسلام

(فقهقه هنا بعض في صفوف العمال وصاح احدهم : هذا وعد الهرة للفأر ان لا تأكله)
فقال زعيم اهل المال من غير ان يجاوبه

(والامر الخامس) هدم التجارة والصناعة والزراعة متى صار صاحب المعمل شريكاً لعمّاله . ذلك لان هذه الفنون المتشعبة العظيمة تقتضي وحدة الادارة واطلاق الارادة . فمتى كان صاحب العمل مقيداً باراء عمّاله فقد خرب العمل لا محالة وخمدت نار النشاط والاقدام الشخصي على الاعمال لان الفرد لا يعود يخاطر بماله ووقته وذكائه من اجل غيره

(والامر السادس) ان تذكروا ايها السادة ان حكومة بلاد كبلادنا لا يليق ان تُبنى على الاوهام والاحلام ويُلقى زمامها الى اصحاب التصورات والتخيلات . ان المخلوقات كلها قد خلقها الله طبقات مختلفة . ففيها القوي والضعيف والكبير والصغير والخامل والنبيه . وما الاشتراكية التي تحاول جعل جميع الناس متساوين الاَّ وهم وخيال . فهي تطلب مثلاً ان توزّع ثروة الدنيا واراضيها على جميع البشر بالسواء حتى لا يكون فيهم فقير وغني بل يكونوا كلهم في مرتبة واحدة . فهل سُمعت خرافة كهذه الخرافة : وهب اننا وزعنا اموال الدنيا واراضيها بين الناس بالسواء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة ان الكسالى والجهلاء والضعفاء والخاملين والمسرفين ينفقون اموالهم ويبيعون اراضيهم بعد مدة وجيزة فيحصرها ويستولي عليها المجتهدون والمقتصدون واهل الذكاء والتدبير . وحينئذ تعود الحالة الى ما هي عليه اليوم ونرجع الى ما نحن فيه . فهل تريدون ضعضعة اساس الهيئة الاجتماعية من اجل تجربةٍ كل التاريخ البشري في الارض يشهد بفسادها . كلا . لا تخالفوا نواميس الاجتماع والطبيعة نفسها . ان نواميس الطبيعة الثابتة تُثبت هذا الامتياز بين المخلوقات . ولذلك يأكل قوي الحيوانات ضعيفها . اية قوة في العالم تقدر ان تساوي بين الذئب والحمل والهرّة والفأر والبازي والعصفور . اية قوة تقدر ان تنقض ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل في الارض . ان هذا الناموس وحده كافٍ لنقض مذهب الاشتراكية . ففي الحياة طبيعياً واجتماعياً وسياسياً القوي يقوم والضعيف يسقط . وهذا سبب انقراض كثير من الامم وقيام كثير من الشعوب . فمن اراد جرّ القوي من طبقته وانزاله ليساوي

بينه و بين الضعيف كان كمن يهدم قوة الهيئة الاجتماعية ويجعل جميع افرادها ضعفاء خاملين بحجة المساواة بينهم »

« ولقد ختم نائب العمال كلامه بذكر كارل ماركس و بتهديده لنا . فنحن نشك في رضائكم عن هذه المبادىء لانكم تعلمون عقباها . انكم لا تجهلون ان دعامة مذهب كارل ماركس اعتقاده بان الحكومات لا يمكن ان تهب الشعب والعمال من تلقاء نفسها حق الاستيلاء على مرافق الامة ومنافعها لان رجال هذه الحكومات من اهل المال الذين هم في رأيه اعداء للعمال . ولذلك يوجب على الشعب ان يغتنم احدى الفرص و يهاجم الحكومة و يستولي عليها . وبعد ذلك يتصرف بها طبقاً لمصلحته من جعل المعامل والمتاجر والمصانع والمزارع ملكاً للامة نفسها واعطاء اصحابها تعويضاً عنها . فاذا كانت هذه مبادئهم ايها السادة فما هذا التحكيم والرغبة في المسالمة الا رياء لا ينطلي محاله علينا

« فهم استحلفوكم ايها السادة باسم الاخاء الانساني ان تجيبوهم الى طلبهم اما نحن فنستحلفكم باسم دستورنا وعمران بلادنا ومستقبل امتنا وشرف صيت حكومتنا عند الامم ان تردوا هذا الطلب »

وما جلس زعيم اهل المال في مجلسه حتى اضطربت صفوف العمال وصفوف اهل العلم المجاورة لها . ثم انفرد احد رجال العلم وقام . فشخصت اليه جميع الانظار واشرقت وجوه العملة لانه كان معروفاً عندهم . فابتدأ هذا الخطيب خطابه قائلاً

دعوى اهل العلم

ايها السادة

« كان في نيتي ان لا اتكلم اليوم بل غداً ولذلك سمعت كثيراً من الاقوال والمزاعم التي تقتضي الرد دون ان تحرك نفسي للرد عليها . غير ان كلمة واحدة لفظها خطيب اخواننا اهل المال في آخر مقاله اثارت نفسي للكلام رغماً عنها

« فهو ايها السادة استحلفكم في آخر خطابه « بمستقبل امتنا » ان لا تجيبوا الشعب الى ما طلب من مشاركة اصحاب الاعمال في اعمالهم . فهذا الاستحلاف « بالمستقبل » امر مدهش ايها السادة في مسألة كهذه المسألة . المستقبل؟ بالله دعوا المستقبل لله . وهل تعتقدون حقيقة ان الانسانية ستكون في المستقبل على ما هي عليه اليوم من الشقاء . اتصدقون ان اكثرية البشر سيبقون في المستقبل عبيداً وخداماً للاقلية . ايدخل في تصديقكم ان الشعوب ستبقى ضعيفة ضئيلة تحت نير الاجتماع اقوياؤها يموتون ضنى وجهاداً في هذه الحياة

لانهم لا يكادون يقدرون على تحصيل رزقهم ورزق اولادهم وضعفاؤها يموتون جوعاً وبرداً في الشوارع والاسواق وعاجزوها يعاملون معاملة الكلاب ـ بينما افراد قليلون في المدينة يجمعون قناطير الاموال

« اذا كنتم تعتقدون حقيقةً بذلك فقد انكرتم الله وجحدتم العدالة وقررتم الاباحة وبررتم قول من يقول : بطون تدفع وارض تبلع فلا نظام ولا ناموس

فصاح حينئذ واحد من صفوف رجال الدين

ـ هذا قول بارد · فان الانسان حرٌّ · وله ان يتصرف بحريته كما يشاء · ولذلك كان مسئولاً عن اعماله · وما الحيلة بسنة تنازع البقاء

فاستشاط الخطيب حينئذ وصاح مخاطباً فريق الدين

ـ لله ما اجهلكم

فاجابه ذاك

ـ لله ما احمقكم

فقال الخطيب :

ـ نعم نحن نحمق من جهلكم · أَلا تعلمون ان سنَّة تنازع البقاء هذه سنة وحشية تناقض كل سنة دينية · أَلا تعلمون ان السنة الدينية ما وضعت الا لمقاومتها · أَلا تعلمون ان رجال الدين اذا قالوا بها كانهم ينتحرون وينحرون مبادئهم

« سنَّة تنازع البقاء معناها ان كل واحد من البشر يسعى لنفسه ويجاهد رفيقه ليستأثر بالمنافع والخيرات دونه · وتكون خاتمة هذا الجهاد ان الاقوى يكون الفائز · والضعيف يُغلب ولا بأس ان يموت ايضاً لان الهيئة الاجتماعية في غنى عنه · وبعض المتقدمين كانوا يقتلون اطفالهم الضعفاء وفقاً لناموس بقاء الافضل · فهذه الحالة هي حالة الحيوانات تماماً ايها السادة ·· كذا تحيي وتعيش وتموت وتنمو او تنقرض · فهل صار من فخرنا في تمدننا هذا ان نقتدي بالحيوانات في معيشتها الدنيئة

« فمبدأُ تنازع البقاء وبقاء الافضل مبدأٌ فظيع وحشي يهدم كل ما بنته الاديان وكل ما وضعه الفلاسفة وعلماء الآداب في الارض · اذ ما الفائدة من مراعاة الآداب والفضائل ما دامت الطبيعة تسنُّ ان للقوي ان يتمتع بكل قواه · ولماذا توضع الحدود والشرائع لكف الناس اذاهم بعضهم عن بعض ما دام القوي معذوراً في اعتدائه لانه يعمل وفقاً للناموس الطبيعي · ولماذا نكذب الاديان وتحثنا على الخير والبرّ والرفق والزهد والوئام والسلام مادام

كل هذا مخالفاً لناموس تنازع البقاء والكلمة العليا هي لهذا الناموس دائماً · أليس ذلك بمثابة غش للضعفاء من اجل منفعة الاقوياء

« فرحماً كم لا تخلطوا بين الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية · ان تنازع البقاء وبقاء الافضل امران صحيحان في الحاله الطبيعية · وهنالك لا مرد لهذين الناموسين الهائلين · لذلك يأكل القوي الضعيف ويسحق الكبير الصغير كما تصنع الحيوانات الوحشية · اما في الاجتماع فان الحالة تختلف كل الاختلاف · ذلك ان الحكومة قد اخذت على نفسها من حين عزم البشر على الاجتماع والمعيشة معاً في مدينة واحدة « ان ترفع ظلم القوي عن الضعيف وتمدّ الضعيف بالقوة ليعيش بامن وسلام » وهذا ميثاق معقود بين الحكومة والناس · وبموجبه يعيش في المدن جنباً الى جنب الاقوياء والضعفاء · الاغنياء والفقراء · المرضى والاصحاء · فلزم عن هذا اذاً ان يكون للحكومة حق التداخل لرفع ظلم القوي عن عنق الضعيف كلما شكا الضعيف من الظلم · اي ان وظيفة الحكومة الاصلية التي اعطت على نفسها بها عهداً انما هي حماية الضعفاء من الاقوياء : اي مقاومة ناموس تنازع البقاء

« فعلى الحكومة اذاً لا ان تُنزل الاقوياء من طبقتهم لمساواتهم بالضعفاء بل ان ترفع الضعفاء من طبقاتهم لمساواتهم بالاقوياء · وهذا امر ممكن وذلك بالتعليم والتدريب والمساعدة · ومتى حصل هذا وصار جميع افراد الشعب اقوياء بتربيتهم العمومية سقطت حجة الذين يقولون ان البشر نبيه وخامل · وانه لا بدّ من تسلط الاول على الثاني كما قال الخطيب

هذا ما نسميه اصلاح ظلم الطبيعة · على اننا لو كنا حيوانات ضارية نعيش في واسع البر لكان من المحتمل ان نترك الطبيعة تفعل فعلها الذي يحلو لها

« ولكنني اؤكد لكم اننا لو كنا نعيش في الطبيعة كالحيوانات لما عاش بيننا كثيرون مثل نيوتن · فان هذا النابغة كان ضعيفاً في صباه الى درجة الموت · ولم يعش الا بعناية امه وعناية الله · ولو عاش بين الاسبرطيين مثلاً لكانوا قتلوه لانه ضعيف لا يجدي نفعاً فذهب ضحية ناموس بقاء الافضل وتنازع البقاء · وانتم تعلمون كيف قلب هذا الرجل العلم باكتشافاته العظيمة · وذلك يثبت ان ناموس بقاء الافضل وتنازع البقاء قد يكون احياناً ضد ناموس العمران (١)

« بقي بعد هذا ان نسأل : ماذا يصنع الشعب بعد ان يقوى ويتعلم ويتدرب ؟ هل

---

(١) لان الفضل في الطبيعة والقوة هي القوة البدنية التي عليها مدار ناموس تنازع البقاء وبقاء الافضل · واما في الاجتماع فقد تغيرت هذه القوة وصارت عقلية .

يعود للاستخدام كالرقيق ام يذهب ويستخدم هو نفسه بعضاً من اخوانه بني الانسان ويكون سيداً عليهم فيعمل بذلك عملاً كان هو نفسه يشكو منه — لا هذا ولا ذاك بل على الحكومة حينئذ ان تسلمه معامله ومصانعه ومتاجره ومزارعه · اي ان تشغله فيها تحت ادارتها هي ومراقبتها · وتوزع ارباحها عليه · وفي شيخوخته تعين له راتباً صغيراً يكفيه حتى لا يموت جوعاً : هذه كل مطاليبهم ايها السادة · فاذا عرضنا هذه المطاليب على بدوي ساذج لم يدخل المدن قط لاستغرب ان يوجد بين البشر قوم يُنكرونها

« يقولون ان حق الملكية لا يُنقض · ولكن لماذا تنقضه الحكومة يوم تقرر نزع ملكية الاراضي والاملاك التي تحتاج اليها في مقابلة تعويض تعطيه لاصحابها · فالمعامل والمصانع والمتاجر والمزارع تُنزع ملكيتها ويُعطى اصحابها تعويضاً عنها

« يقولون انه اذا قُسمت الاموال والاملاك بين الناس على السواء فانها تعود تجتمع في ايدي المدبرين المقتصدين · نقول ليس احد يطلب قسمتها بالسواء فان هذا وهم وافتراء علينا وعلى العمال · وانما نطلب وقف المصانع والمزارع والمتاجر والمعامل للامة وقفاً لا يجوز بيعه وشراءه لانه للجمهور · وليس يجوز للجمهور ان يتمتع بسوى ريعه · وتكون الحكومة الوكيلة العظمى لهذا الوقف العظيم

« يقولون ان ذلك يضعف الهيئة الاجتماعية لانه يجعل الاقوياء ضعفاء · نقول بل بالعكس انه يقوّي الهيئة الاجتماعية لانه يجعل الضعفاء اقوياء

« يقولون ان ذلك يهدم التجارة والزراعة والصناعة من قلة الاقدام حينئذٍ عليها وتقييد صاحب العمل بآراء عماله · نقول اذاً كيف تنجح المشروعات الكبرى التي تديرها الشركات الكبرى · والحكومة اليست حاضرة للمساعدة · وهل نجحت الاعمال التجارية والصناعية والزراعية من غير تنشيط الحكومات ومساعداتها

« يقولون ان المتاجر تكسد لانها لا تعود قادرة على مزاحمة البضائع الاجنبية الرخيصة · نقول ان بضائعنا ترخص اثمانها حينئذٍ بدل ان تغلو لان الحكومة لا تطلب ربحاً منها تخزنه في صناديقها

« يقولون ان ذلك يضر بالحالة الحاضرة · فنقول ولكن هل تريدون ان نخون المستقبل ونؤخره حفظاً للحالة الحاضرة

« المستقبل · لقد عدنا للمستقبل · اننا نريد في المستقبل حياة افضل من حياتنا الآن · فانّ اعصاب الانسانية الآن كلها متوترة متهيجة · كل واحد لا يأتمن اخاه على

اقل الاشياء . كل واحد يحذر اخاه حذره من الذئاب الضارية . وما ذلك الآ لذلك المبداء الملعون الذي انبث في نفوسنا وهو مبداء تنازع البقـاء مبداء طلب الفائدة للذات بكل الطرق وان اضرّ ذلك بالغير ضررًا عظيمًا . فنحن نريد بدل هذه الانسانية المضطربة المتشنجة انسانية هادئة مطمأَنة متمتعة بامن وسلام بنعم الارض والسماء . وهذا لا يتمّ مع النظام الحاضر والحالة الحاضرة لان الانسان لا تهدأ نفسه ويسكن جاشه وتتلطف اخلاقه الا اذا صار امينًا على رزقه . ولا امن على الرزق ما دام الاقوياء متروكين على الضعفاء يمتصون دماءهم والضعفاء يزمجرون ويزبدون في سرّهم حسدًا وطلبًا للنقمة

« ولقد سمعت الخطيب الثاني يتهكم على العلم واهله ويقول ان اهل المال هم المحسنون الى الهيئة الاجتماعية بقناطيرهم الذهبية . فهذه دعوى غريبة لانني كنت اظن ان المال يسمم الآن هيئتنا الاجتماعية تسميمًا

« وليس سبب هذا السم المال نفسه ولكن الطريقة التي يُستعمل بها . فان طلاب المال لا غرض لهم في مصانعهم ومتاجرهم ومزارعهم سوى « ربح اكثر ما يمكن ربحه بكل الطرق » ولذلك نظلمهم اذا اردنا وضع قواعد ادبية ورمنا منهم حفظها في معاملاتهم . ان طلب المال والادب لا يجتمعان . ولذلك قيل « لا يُعبد ربان : الله والمال » ــ وهذا بخلاف ما لو كانت تلك المصانع والمزارع والمتاجر في ايدي الحكومة . فانه لما كان اساس كل حكومة عادلة الفضيلة المطلقة وكان غرضها حماية الضعفاء لا جمع المال فانها تنبو بالطبع عن الروح التجاري الافرادي الذي يسمم الهيئة الاجتماعية اليوم ويبثّ فيها روح الفساد بدل روح الاصلاح والاحسان الذي اشار الخطيب اليه

« وروح الفساد هذا ظاهر في كل مكان . فان النفوس اليوم لم تعد تعرف نظامًا غير الذهب ولا فضلاً لغير الذهب ولا قيمة لغير الذهب . انظروا الى اعمالهم لا تجدوا لها غرضًا غير جمع الذهب والظماء الى الذهب . ولذلك صار كل شيء يُشرى ويباع عندهم بالذهب . فالاستقامة والامانة : كلام فارغ لان المقصود جمع الذهب . الآداب والفضائل : حلية العاجزين لان الحلية الحقيقية حلية الذهب . الضمير والذمة والشرف والمبادىء الازلية والرفق بالناس ومحبة القريب وصنع الخير والله : دعنا منها كلها فما هي الا حبائل نصبها الساسة والشارعون لاخضاع الشعوب والحقيقة ان كل شيء دون الذهب . ــ فما هذه الحالة الهائلة التي ترتعد منها فرائص الانسانية ايها السادة . هذه هي جهنم الحقيقية . هذه هي الهاوية السافلة التي يلقون فيها كل ما هو محبوب وكل ما هو مقدس وكل ما هو جميل وكل

ما هو عزيز عندنا . وهم يسمون هذا الامر سعة وثروة وخيرات ونعماً . واما انا فاسميها : فظاعة وجنوناً وهوساً و شراهة ونهماً وقبضاً على الهواء

« وقد قلت « قبضاً على الهواء » لان طالب الذهب يرى وهو على فراش الموت في يومه الاخير في ساعته الاخيرة انه سعى وتعب وجدّ عبثاً . اذ ماذا عمل ؟ واي فائدة له مما جناه؟ هل كان يأكل كل يوم الف كبش كما تهكم عليه اليازجي ام كان يكتفي بكسرة من الخبز وقطعة من اللحم كما كان يأكل جاره الفقير . وما يعمل اولاده بتلك القناطير المقنطرة التي تركها لهم . هل ترى جمعها قطعة قطعة من كل طريق وبكل الوسائط ومن كل الجيوب لكي يرى عدم فائدتها في ساعته الاخيرة وعجزه عن اخذ شيء منها معه — وحينئذ يتمثل له الاشخاص الذين امتصها منهم في حياته والدموع التي جرت من بعضهم والغضب الذي ثار في بعضهم والعرق الذي انصب من بعضهم في سبيل خدمته فيرى ان حياته كانت حملاً ثقيلاً على البشر . وفي هذه اللحظة الاخيرة يفهم معنى قول المالي المشهور كارنجي غريبة الغرب « سيأتي يوم يكون فيه كل غني يموت دون ان يفرّق امواله موصوماً عند الناس بوصمة العار » فيغطي حينئذ عينيه بيديه ويقول : لم يبقَ لي غير رحمة الله . ولكن الله لا يرحمه الا اذا كان يهب في تلك اللحظة نصف ماله للفقراء والمساكين : اي ان يعيد نصف ماله للامة التي اخذه منها . — وعلى خلاف ذلك من لا يجعل غرضه في حياته مقصوراً على جمع المال بل يطلب غرضاً اشرف موافقاً لمصلحته ومصلحة الهيئة التي يعيش فيها معاً

« وهذا الغرض الاشرف هو حفظ النظام في الارض والمساعدة على حفظه . فان البشر لا يمكن ان يعيشوا براحة في الارض من غير شرائع تحكمهم . وهذه الشرائع منها سياسي وديني واجتماعي وادبي . ومجموعها نسميه « النظام » اي الشريعة المطلقة التي تدخل فيها كل الشرائع . وحفظ النظام اول ما يجب على الانسان الذي يستحق ان يُسمى انساناً . وكل من يخرق هذا النظام يخرج عن حدود الانسانية . ولكن كيف يُخرق هذا النظام ؟ يُخرق بطرق عديدة . فالصانع الذي يغش صناعته والزارع الذي يغش زراعته والتاجر الذي يغش تجارته انما يخرقون ذلك النظام لانهم يخدعون اخوانهم بني البشر ليربحوا منهم اكثر مما اعتادوا ربحه . وصاحب العمل الذي يستخدم العمال في عمله باجرة قليلة بالنسبة الى ربحه وصاحب الاموال الذي يضايق مديونيه والسيّد الذي يسيء في معاملة مسوده لانه لا يعظمه بقدر ما يريد ان يُعظَّم — كل هؤلاء ايضاً يخرقون حرمة النظام الاجتماعي لان الرفق والرأفة اساس هذا النظام . فانتم ترون ان « حفظ النظام » و « جمع

المال » نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يأتلفان . فاين ما قاله الخطيب من ان الهيئة الاجتماعية لا تستغني عن اهل المال

« كلا ثم كلا . أن الهيئة الاجتماعية تحتاج الى المال لا الى اهل المال . والمال متى عاد الى صندوقه الحقيقي انحصر في يد الحكومة . اما الذين لا يمكن للهيئة الاجتماعية ان تستغني عنهم فهم اهل العلم . هم حفظة هذا النظام الذين نشير اليه . هم الذين يطرحون انفسهم بين الانسانية المقتتلة على حطام الدنيا وخزعبلاتها ليسمعوها كلمة المحبة والرفق والالفة ويذكروها بزوال هذه الاباطيل . هم الذين يولدون فقراء ويعيشون فقراء مفتخرين بفقرهم لان قناطير الاموال التي تُجمع في الصناديق انما تُجمع من دماء بني جنسهم اما من التسفل لاقويائهم او الضغط على ضعفائهم . هم الذين تراهم مع فقرهم هذا مكتفين قنوعين يستنشقون براحة وهناء هواء جوّهم النقي من جراثيم الرذائل والفظائع التي تسمم جوّ غيرهم . هم الذين يطبقون اعمالهم على اقوالهم فلا يظلمون ولا يخدعون ولا يتسفّلون . فكأنهم اعمدة شامخة نصبها الله بيده الازلية في هذه الارض ونقش عليها فضائل اديانه بكتابات جديدة وطرق جديدة بعد ان فسدت الاعمدة الاولى التي نقشها عليها اولاً بفساد قلوب الرجال الذين كانوا يحرسونها

« هذا ما يُقال في العلم حافظ « النظام المطلق » في الارض . بقطع النظر عما كان له من الفوائد العملية كالاكتشافات والاختراعات التي احيت التجارة والصناعة والزراعة ولولاه لما كانت الآن على جزء من تقدمها الحاضر

« فمن الغريب ان يهاجمنا اهل المال وينكروا فضل العلم ونعمته بعد كل ما صنعه العلم للهيئة الاجتماعية

« اما حكمكم في مشاكلنا هذه ايها السادة فليكن كما تشاؤن ولكن علينا ان نذكركم بان الدنيا كلها تنتظر حكمكم بشوق شديد لترى الى اي درجة وصل العدل في الكرة الارضية »

ولما جلس الخطيب تزحزح الشيخ الرئيس ونظر في ساعته ثم قال بصوت جهوري

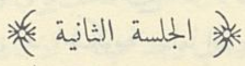
ــ انني مسرور لاننا سمعنا اقوال الخطباء الثلاثة بكل هدوء وسكينة . فهل ترون ان نتباحث الآن فيها

فنهض واحد من فريق رجال الدين وقال

ــ بل ارجو ان نترك البحث في كل المشاكل الى ما بعد سماع اقوال باقي الخطباء

فهزّ بعض من فريق العلم رؤوسهم لانهم علموا ان هذه حيلة عليهم وقال الشيخ الرئيس اذاً نعقد غداً الجلسة الثانية

الفصل السابع



الجلسة الثانية

العلم ومشاكله

وفي الليلة التالية ازدحمت الحديقة بالاقدام ازدحاماً شديداً . ذلك ان الخطب التي أُلقيت امس حمَّست السكان ولم يكن في المدن الثلاث في ذلك النهار حديث في غيرها . وقد حدثت بعد العصر عدة فتن في مدينة المال بين العمال واصحاب الاعمال فاضطرت الجنود الى المداخلة اعادة للنظام . ولذلك كان عدد الجند حول الحديقة في هذه الليلة اكثر منه في العادة

ولما انتظم عقد الاجتماع وجلس الشيخ الرئيس في كرسيه وعلى وجهه لوائح القلق واشتغال البال انصت الجميع . فقال الشيخ الرئيس

ـ كملوا يا اولادي مباحثتكم في مصالحكم واذكروا وصيتي لكم بالهدوء والسكينة

وكانت هذه الجلسة مخصوصة بالعلم ورجاله . فنهض زعيم كبير من صفوف رجال الدين وابتدأ يخطب في الجمع بصوت جهوري . فقال

دعوى اهل الدين

ايها السادة

ـ لما كنت اصغي الى الخطب الثلاث التي القيت امس كنتُ اظنني في حلم . لان الخطباء الثلاثة بعد كل ما ذكروه في اثناء كلامهم لم يدخلوا في اساس الموضوع . فكل كلامهم كان خارجاً عن دائرة المسأَلة

ان المسأَلة الكبرى التي هي مسأَلة المسائل في الهيئة الاجتماعية هي « كبح هوى الانسان » اي وضع شكيمة تضبط شهواته واهواءه لان الاجتماع مستحيل من غير هذه الشكيمة . وهذا هو السبب في نزول الاديان وقيام المهذّبين والمرشدين ليعلّموا البشر انهم لا يكونون بشراً الا اذا كسروا حدتهم وقللوا طمعهم وسكَّنوا اهواءهم وسامحوا المسيئين اليهم . الى غير ذلك . ولكن تعالوا وانظروا ماذا يصنع اهل الكفر والضلال

فصاح صائح من بين صفوف اهل العلم

ـ لم يصنعوا شيئاً سوى انهم نقلوا الجنة من السماء الى الارض

فاتمّ الخطيب كلامه دون ان ينتبه اليه قائلاً

ـ انهم قاموا يعلّمون الناس الانفكاك من هذه القيود الادبية الجميلة التي حفظت الهيئة الاجتماعية الى اليوم . فانهم يحرّضون الضعفاء على ان يتمتعوا بالحياة كالاقوياء . ويعلمونهم ان ذلك من حقهم لانهم الاكثرية . وان اللذات الموعودين بها فوق تعويضاً لهم عما فاتهم منها هنا انما هي لذات وهمية . وبهذا التعليم ايها السادة يهدمون نظام الاجتماع الذي يزعمون انهم حافظوه ويثيرون كل ما في نفس البشر من الاحقاد والضغائن والشهوات الحيوانية

فصاح حينئذ صائح من صفوف العمال

ـ كم اعطاك اهل المال لتقوم مدافعاً عنهم

وصاح صائح آخر منهم

ـ لا عتب علينا نحن العوام اذا كنا نطلب التمتع بخيرات الارض ما دام رجال الدين قد سبقونا الى ذلك منذ ازمان

فاتمّ الخطيب كلامه قائلاً

ـ فاهل الضلال هم السبب في كل هذه الفتن وهذه الاضطرابات . ولست اسميهم « اهل العلم » لان العلم الحقيقي براء منهم . وها في صفوفنا نحن كثيرون من اهل العلم الحقيقي ينكرون تلك البدع المهلكة

« ايها السادة . ان بابل ونينوى وسدوم وعمورة انما خربت وصُب عليها غضب الله لانها اطلقت اهواءها وشهواتها من كل قيد . فهل ترومون ان يصيبنا ما اصابها

« هوءلاء المصلحون اصلحهم الله يريدون الاشتراكية . اي يريدون هيئة اجتماعية فيها الجميع اخوة وتكون ادارتها تهتم بالجميع . فعافاكم الله ايها المقلّدون الذين يُسمون انفسهم مخترعين . الا ترون ان هذه الهيئة هي هيئتنا نفسها . فتعالوا اذاً الينا . ولكنكم لا تأتون لان اشتراكيتنا نحن مبنية على المحبة والرفق لا على العنف والغصب . نحن نعتبر الكبير فينا صغيراً والصغير فينا كبيراً واما انتم فتريدون ان تكونوا كلكم كبراء . نحن نجامل الجميع ونساوي بين الجميع لنرضي الجميع واما انتم فتريدون جعل الفقراء اغنياء والاغنياء فقراء . نحن نطلب خيرات الدنيا لنفرقها على غيرنا واما انتم فتطلبونها لتدفنوها في بطونكم

« فالفرق بيننا وبينكم في المسألة الاقتصادية كالفرق بين الخير والشرّ والبياض والسواد . انتم تحرّضون وتهيجون ونحن نسكّن ونهمّد . والله من اعالي السماء يعلم اينا انفع للهيئة الاجتماعية

فصاح حينئذٍ صائح من بين العمال

ـ هذا افتخارٌ من يكبح جماح البقرة ويمسكها لمن يريد حلبها

وصاح صائح من فريق اهل العلم

ـ نرا كم صرتم تفتخرون بفوائد مبادئكم بدل الافتخار بصحتها

فاجاب الخطيب ـ ان المفيد يكون صحيحاً دائماً

فصاح واحد آخر من فريق العلم ـ ان دين بوذه و كونفوشيوش وبرهما صحيح ايضاً لانه مفيد

فاستشاط الخطيب غضباً حينئذ وصاح مخاطباً اهل العلم

ـ كل المذاهب خير من مذهبكم . ونحن سواءٌ كنا مسيحيين او مسلمين او اسرائيليين او بوذيين او براهمة او كونفوشيوشيين كانا على اتفاق ضد مبادئكم المهلكة

فصاح صائح آخر من فريق العلم

ـ هذا افتراءٌ فظيع علينا فاننا نؤمن بالله مثلكم

فاشتد غضب الخطيب فقال

ـ نعم تؤمنون بالله لتتخذوا هذا الايمان ستاراً تنشرون وراءه مباد‌ءكم . وهل تحسبوننا بلهاً الى هذا الحد حتى نكتفي منكم بالايمان بالله . فاما ان تؤمنوا كما نؤمن نحن اوتكونوا جاحدين . هل تؤمنون برسالات الرسل والانبياء والاقانيم الثلاثة وعلم الله بكل شيءٍ ومقدرته على كل شيءٍ والبعث والحساب في عالم آخر فيه جنة وفيه نار . كلا انكم لا تؤمنون بذلك . ومع ذلك تنادون « ان علمكم موافق للدين » . وعلمكم لا يكون موافقاً للدين عندنا الا متى اضاف الى ايمانه بالله الايمان بهذه الامور لانها هي الدين . فتدجيلكم اجيزوه بعد الآن على السذج لا علينا

فقطع كلامه احد رجال العلم قائلاً

ـ هل تعلمون سياستكم هذه الى اي هاوية تجركم

فاجاب الخطيب

ـ كل الهاويات عندنا مقبولة بالنسبة الى هاويتكم . انكم تهدمون ما بنيناه في عدة قرون . انكم تضعضعون الهيئة الاجتماعية من اساسها . فعلينا محاربتكم بكل سلاح « ولكن خبرونا ماذا تريدون ان تضعوا بدل الشيء الذي تطلبون هدمه . لا ريب انكم تعلمون المبداء القائل « لا يمكن في الاجتماع هدم شيءٍ الا متى امكن وضع شيءٍ آخر مكانه يقوم مقامه » فماذا تضعون موضع الدين . أتضعون العلم ؟ لله ما

لله ما اسخف احلامكم . اذهبوا وقولوا للناس وخصوصاً للشعب المسكين : يجب عليكم ان تحبوا قريبكم من اجل العلم . وتصنعوا الخير من اجل العلم وتعفّوا عن مال غيركم اكراماً للعلم . ولا تصنعوا شراً في السر ولا في العلانية اكراماً للعلم — وحينئذ تسمعون الجواب . ولكن ويل للهيئة الاجتماعية في ذلك اليوم الذي تقطع بيدها الاثيمة قيود خوف الله ورهبة الدين لتجرب هذه التجربة الهائلة

فقطع هنا كلامه خطيب العلم السابق قائلاً

— هل تسمح لي ان اجيبك الآن عن هذا الكلام

فقال الخطيب

— اذا كان جوابك وجيزاً فلا بأس

فقال المعترض

— معاذ الله ان نروم هدم الدين كما تفترون علينا وانما نروم هدم الاوهام والخزعبلات في الدين . فلماذا تجعلون هذه قسماً منه . واول هذه الخزعبلات قولكم ان الانسان لا يمكن ان يعبد الله ولا ان يفهم الكتب الدينية الا بواسطة كاهن او شيخ . وبذلك تضعون انفسكم بين الله وبين عباده رفعاً لشأنكم وطلباً للفائدة لكم . وهذا ما جعل بعض رجال الدين في بعض خطبه العمومية يفضّل الذبيحة اليومية في الكنيسة على كل ما في الديانة المسيحية من الفضائل وروح الكمال . فنحن اذا حاربناكم فانما نحارب هذه السيطرة على عقول الناس . اي نحارب اتخاذ المبدأ سبيلاً للمصلحة

« اما ماذا نضع موضع الدين فهذه مسألة يجيبكم عنها علماء الفلسفة الوضعية او الحسية . فانهم يقولون ان للبشر ثلاثة اطوار : طور الطفولية وهو الاعتقاد بان العالم محكوم بالارواح والآلهة . وطور الشباب وهو البحث في ما وراء الطبيعة . وطور الرجولية وهو طلب الهيئة الاجتماعية « نفع الناس » بناء على « الواجب » ومحبة الناس والعقل والمصلحة المتبادلة . وهم يقولون ان البشر متى وصلوا الى هذا الطور صاروا يعملون ما يجب عليهم عمله من غير ارهاب ولا تشويق بل بسائق فطرتهم ومصالحهم المتبادلة المحصورة في هذه العبارة « يجب ان لا اصنع بالناس الا ما اريد ان يصنع الناس بي »

فصاح الخطيب

— اذاً تكون قصارى فلسفتهم ايها السادة ان يأكل الناس ويشربوا ويناموا ويعيشوا معيشة الخنازير . هذه هي « المعيشة الوضعية » وكثيرون من البشر هذا شأنهم

اليوم . وهم يضيفون الى ذلك التمتع بكل شهواتهم واهوائهم الحيوانية . فهل يكون في المستقبل ايها السادة هؤلاء الحيوانيون العابثون بكل شيء مصيبين والذين صرفوا حياتهم بالعفاف والزهد والفضيلة والخير والصلاح مخطئين . هل المستقبل سيذبح الفضيلة هذه الذبحة الهائلة بان يثبت ان اولئك كانوا اقرب الى الحقيقة من هؤلاء . اذاً ما افظع الحاضر وما اقبح المستقبل . و ياهاويات الفناء . يا جحيم العدم . ابتلعينا منذ الآن واريحينا من حاضر فظيع ومستقبل قبيح

« ولكن لا لا . ان الله موجود ايها السادة « وكل ما في الطبيعة يدل عليه و يشير اليه . ولا ينكره الا الاشرار الذين يخافون عدله» . ونحن لا نعلم هل يوجد في العالم بشر تكفيهم تلك المعيشة الخنزيرية المجرَّدة عن كل عاطفة انسانية كريمة وكل جنوح الى ما وراء الطبيعة ولكننا على ثقة من انَّ في العالم قوماً لا تكفيهم هذه المعيشة الحيوانية . بل ان نفوسهم الشريفة وفطرتهم السامية تجنح دائماً الى خالق الطبيعة وواهبها قواها . الى الآخرة التي هي وطننا الحقيقي . الى الحياة الروحية التي هي الحياة الحقيقية . – و بناء على ذلك يكون علمكم وفلسفتكم مما يُرضي قسماً من الانسانية فقط . والقسم الثاني لا يستغني عن علمنا وفلسفتنا اي عن مبادئنا الدينية . ولذلك يكون الدين من حاجات قسم كبير من الناس لاختلاف قلوب الناس باختلاف فطراتها ولان اصوله مغروسة في النفوس لا في الكتب والاوراق

فصاح به المعترض

— ولكن هذا الفريق من الناس ينقرض متى دخلت الانسانية في الطور الثالث من اطوار الفلسفة الوضعية التي تقدم ذكرها

فصاح الخطيب ضاحكاً ومتهكماً

— انتظروا فاننا معكم منتظرون . ولكن على افتراض ان هذا القول صحيح هل يجوز جرح عواطف النفس بمهاجمة معتقداتها قبل حصول هذا التغيير ودخول الانسانية في طور التحوّل عما بين يديها

فاجاب المعترض

— نحن نجاهد كالرسل والانبياء . ولولا هذه المجاهدة لما تقدمت المبادئ . وهل تظنون ان المسيحيين والمسلمين لو انتظروا حصول التغيير في الارض من مجرَّد سير المبادئ، كانوا قد وصلوا الى ما وصلوا اليه

فصاح الخطيب وقد فرغ صبره

— بئس هذا الجهاد الذي تقومون به . فانكم تهدمون به كل شيء محبوب الينا . واي شيء سلم من هدمكم . لقد هدمتم الدين وهدمتم الوطن وهدمتم الجيش وهدمتم العائلة وهدمتم العادات الجميلة المقدسة

فضحك هنا كثيرون من فريق العلم وقال احدهم

— انك تتسلح بالمبادىء الوطنية وبالدفاع عن الجيش تقوية لحجتك

فقال الخطيب

— وهل تنكرون انكم افسدتم الفكرة الوطنية وشوّهتم مبادئها المقدسة . اما نسمعكم دائماً تعلّمون الناس ان البشر اخوان وان الحدود يجب ان تُزال من بين بني الانسان . فما معنى هذا عندكم . اليس معناه تسليم الوطن للاجانب . ثم اما أنتم الذين تدعون الى نزع السلاح وقصدكم من ذلك اضعاف جيشنا لكي يصبح غير قادر على مقاومتكم يوم تريدون انفاذ اغراضكم . اما انتم الذين تحرّضون الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية لانها عارٌ في مذهبكم لقيامها على حمل السلاح وسفك الدماء وتنشرون المنشورات بين صغارهم ليعصوا قوادهم ولا يكبحوا جماح العمال في اوقات الاعتصاب . اما انتم الذين ادخلتم الطلاق في العائلة فضعضعتم به اساسها واساس الهيئة الاجتماعية ثم تريدون الآن توسيع نطاقه باعطاء كل واحد من الزوجين حق الطلاق حينما يطلب ذلك وان لم يرضَ به الثاني . اما انتم الذين تدعون الى اباحة الزواج من غير زواج والعياذ بالله اي من غير عقد رسمي سوى رضى الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ومتى شاءا يفترقان كما اجتمعا

فصاح حينئذٍ كبير من فريق رجال العلم

— يظهر ان هذا الكذب لا حدّ له عندكم فانكم تنسبون الينا كل اعمال الاشتراكيين مع علمكم اننا براء منها

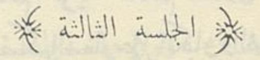
فقال الخطيب

— ولكن أليست هذه كلها نتائج مدنيتكم هذه . انما اردنا ان نظهر للامة الهاوية التي تجرّون البلاد اليها اذا بقيت لكم الحرية . فانكم تعطلون عقائد الامة بجرّها الى الالحاد . وتثيرون الحرب الاهلية بتحريضكم الصغار على الكبار والضعفاء على الاقوياء . وتفرّقون الجامعة الوطنية والدينية بدعوتكم الى الاخاء والتعاون الانساني . وتُضعفون قوة البلاد بمقاومة جيشها واهانته في كل يوم . وتهدمون الهيئة الاجتماعية والفضائل المدنية بمحاربتكم العائلة ووضعكم الفاحشة موضع الزواج المقدس اللطيف

« هذه ثمار اعمالهم ايها السادة · ومن ثمارهم تعرفونهم · فلا يفتخروا بعد الآن بانهم حفظة « النظام المطلق » مع انهم مضعضعوه · ان النظام يقتضي قبل كل شيء « انكار الذات » اي ان يتنازل الانسان عن شيء من حقوقه في سبيل المصلحة العمومية اكراماً للذين يخدمون و ينفعون · فالرؤساء والحكام والاغنياء والكبراء يتفانون في الخدمة العمومية ونفع الامة ولذلك يجب على افراد الامة ان ينكروا ذواتهم قليلاً ويتركوا لهم شيئاً من حقوقهم في مقابلة متاعبهم ومسئوليتهم · ولذلك تكون المساواة المطلوبة بين هولاء وافراد الامة عبارة عن وهم وخيال · اما المساواة الممكنة الحقيقية ايها السادة فهي تكون في السماء لدى الله لا في الارض بين الناس »

وهنا فرغ الخطيب من خطابه وجلس وهو يمسح العرق عن جبينه · ويظهر ان الغيظ الذي كان في اثناء كلامه يجيش في صدور العمال والغلاة من انصارهم قد طفح حين سكوت الخطيب فهاجوا وماجوا وصرخوا صرخة واحدة قائلين « فليسقط الظالمون » وصاح احدهم « قلت ان المساواة وهم وخيال فالوهم معتقدك والخيال في دماغك اما المساواة فسنحققها او نموت » وصاح اخر « ان قولك وهم وخيال ينقض كل الاديان ولكن لا يهمكم دينكم ما دامت مصلحتكم مصونة » — فردّ عليهم حينئذ فريق من رجال المال ورجال الدين وعلت الضوضاء واحتدم الجدال وتماسك فريق منهم بعضهم ببعض وتضاربوا فعمت الفتنة الحديقة كلها واضطرت الجنود الى المداخلة حفظاً للامن · ولكن الجنود لم تتمكن من ذلك الا بشق النفس لعظم الاضطراب · ثم انجلت الفتنة عن جريحين حُملا الى المستشفى بحالة النزع · واخرجت الجنود الناس من الحديقة وفرقتهم في المدن الثلاث لان التحمس كان شديداً

الفصل الثامن



الجلسة الثالثة

الدين ومشاكله

وفي اليوم التالي انتبه السكان على اصوات جلبة العمال واجتماعهم في الشوارع والاسواق افواجاً افواجاً لاعتصابهم وتركهم العمل بتاتاً في ذلك اليوم · فتفاقم الخطب وازداد الاضطراب ·

لكن لما بلغ العمال ان شيخ اهل العلم سيخطب في تلك الليلة ردًّا على خصومهم خمدت قليلاً نار حدتهم . ولما امسى المساء غصت الحديقة بالناس حتى لم يبقَ فيها مكان لموضع قدم . وكانت جميع الابصار حائمةً على صفوف اهل العلم لتشاهد شيخهم الكبير الذي كان لا يخرج من خلوته في مدينة العلم ولا يحضر المجتمعات العمومية ليبدي رأيه فيها الاَّ في اشد الاوقات . وبيناهم يتطاولون نحو صفوف العلم انفرد من هذه الصفوف شيخ مهيب جليل كلّل الشيب رأسه وهو يناهز السبعين . فجلس على كرسي منفرد كان موضوعاً على دكة وابتدأ خطبته والناس سكوت كأَن على رؤُسهم الطير . وكان حليم جالساً مع رفيقه في الزاوية التي تقدم ذكرها قريباً من شيخ العلماء والشيخ الرئيس وقد صار شديد الاهتمام بما عليه اهل هذه المدن من الاختلاف بعد ما سمعه في الليلتين السابقتين

اما شيخ العلماء فانه انشأَ يقول

خطبة شيخ العلماء

ايها الاخوان

ـ قرأْتُ اليوم في الجرائد خطبة اخينا المدافع عن الدين الحامل على العلم حملة منكرة فخيل لي وانا اقرأُها انني في مشهد صراع وان الخطيب مصارع يطلب اعدام خصمه لا اقناعه . فذكرت حينئذ مشهدًا كهذا المشهد فيه فكاهة وعبرة معاً . فانني كنتُ اسمع مرة احد المتحمسين في الدين يدعو الى دينه . فكان يتكلم بصوت كالرعد القاصف ويخبط الهواء بيديه خبطاً متواليًا ويرفس الارض بقدميه رفساً شديدًا وينادي ملء فيه : ان البشر لا يستغنون عن الدين . ان دينه خير الاديان كما ورد في كتابه . ثم اردف ذلك باقوال عن العلة والمعلول والفاعل والمفعول والواجب والممكن وغيرها . فلبثت في مكاني مبهوتاً وانا اقول : ان هذا الرجل يطلب ان يدلنا على طريق السماء ومع ذلك فانه يغطي وجهها بالغبار الذي تثيره حدته وبالسحب المتراكمة من اقواله الجافة الغامضة التي لا يفهم سامعوه لها معنى . والتفتُ لارى حالة سامعيه فابصرتُ في زاوية امامي فتاةً جاثية على بلاط الارض ووجهها لاصق بالثرى وهي تصلي ولا تسمع شيئًا من كلام ذلك المتحمس . فثارت نفسي لهذا المشهد وقلت ان هذه الفتاة بلطفها وهدوئها وسكوتها تعرف طريق السماء وتؤثر في الارشاد الهيا اكثر من ذلك الواعظ البليغ الفصيح

« وان سأَلتم لماذا يكون تأْثير هذه الفتاة مع سكوتها اوقع في النفوس من تأْثير ذلك الواعظ المتحمس مع كثرة كلامه . فاجيب : ذلك لان هذه الفتاة تتمسك باسمى مبادئ

الدين ولا تلتفت الى ما بقي . واسمى مبادىء الدين التسليم والاستسلام الى الخالق وترك الدنيا لطلب ما وراءها لا للاستيلاء عليها وعلى عقول سكانها . بماذا كبرت الاديان وشرفت وعظمت ؟ هل كان ذلك بالحروب والسيوف والمدافع ؟ كلاً وانما كان ذلك بدم الشهداء . اي بتسليم الانسان نفسه الى كبرياء المخلوق اعتماداً على عدل الخالق . وقد كان الخالق عادلاً فان ذلك المسيحي الذي كان يحتمل كل عذابات الموت بسكوتٍ وفرح وشكر لله لانه اختاره ووجده اهلاً لان يتعذب من اجله . وذلك العربي الذي كان في واقعة اليرموك يهجم طالباً الموت منادياً " يا محمد امتك امتك " — قد اسسا في العالم اديانا عظمى وممالك كبرى . فكان انتصارهما عظيماً

« فدماء الشهداء ايها السادة وظلامات المظلومين هي التي نصرت الاديان وجعلت على هامة الدين اكليلاً من الجمال والسناء . فاحذروا ان ترفعوا هذا الاكليل عن هامة الدين . وانكم لترفعونه عنها وتضعونه على هامة قوم غيركم يوم يصير الشهداء في صفوف غير صفوفكم . فينتقل يومئذ صولجان العظمة والجمال منكم الى اولئك الشهداء الذين تعادونهم وتعذبونهم . اذاً لا تضطهدوا العلم والعلماء ولا تفتروا عليهم ولا تقاوموا العمال المساكين انتصاراً لاصحاب الاعمال فان هولاء العمال هم شهداء العصر الحاضر . وارجعوا الى الله في نفوسكم والى مبادئكم الاساسية التي منها درجتم فتنكشف لكم الحقيقة التي ننشدها معكم

« ولا تخشوا ان اقع في الخطاء الذي يقع فيه الناس عند طلبي التساهل والاعتدال منكم . فانني اعلم ان التساهل الديني ليس سوى فرع من التساهل العمومي الواجب بين جميع الناس في جميع المعاملات . اذ ماذا يفيدنا ان نطلب التساهل الديني فنحصل عليه ثم يبقى التعصب والتصلب في باقي الامور شديد البنيان راسخ الاركان . كلا . اننا نطلب التساهل المطلق . التساهل بكل فروعه . لان هذا التساهل العام هو وحده الضربة القاضية على الحيوانية والاثرة البشرية . فالذي يفتخر بانه متساهل في دينه لا يبغض غيره ولا يطلب ضرره بسبب مذهبه ثم تراه ظالماً في معاملاته الخصوصية فسمه متعصباً لا متساهلاً . وهكذا يكون صاحب العمل الذي يظلم عامله متعصباً . والعالم الذي يتصلب برأيه ولا يحتمل رأي غيره متعصباً . وهلم جراً . فاطمئنوا فانكم لستم وحدكم مصدر التعصب لان للتعصب انواعاً متعددة

« ولكنني اعتقد انه يحسن بخدمة الله ان يكونوا البادئين باقامة مملكة التساهل في الارض وقتل روح التعصب على انواعه . فساعدونا ايها السادة على محاربة الاثرة البشرية وحب

الذات واعادة الامن والنظام الى نصابه في البلاد

« وتوصلاً لذلك علينا ان نبحث معكم في مسألتين (الاولى) علاقة العمال بار باب الاعمال (والثانية) علاقة العلم بالدين

« اما المسألة الاولى فقد قرأتُ اقوال الفريقين فيها . فرأيت الغلو في الجانبين . فلتكن وظيفتنا ايها السادة التوفيق بين المصلحتين لا نصرة احداها على الاخرى

« وقد القيتُ الى حضرة الرئيس حين دخولي الى هذا المكان لائحة فيها عدة اقتراحات اظنها كافلة بهذا التوفيق

« اما المسألة الثانية فحلها اسهلُ من حل المسالة الاولى . فان العلم والدين اذا اختلفا في الطرق فانهما يتفقان في الغرض . ذلك لان غرض العلم والدين واحد وهو تحسين حالة الانسانية وترقية شؤون البشر . فما الموجب لجعل الواحد يناقض الثاني ويحاربه

« لا موجب لذلك سوى الاهواء والمصالح ايها السادة

« فلننبذ الاهواء والمصالح ولنتمسك بالمبادىء والمبادىء توفق بيننا وان اختلفنا في تفسير بعضها

« ولكن فاعلموا جيداً ايها السادة انه لا سبيل للوفاق بين الفريقين الاّ بتساهل الاثنين . فعلى الدين قبل كل شيء ان يتذكر ان العالمَ قد تغير وتبدل ولذلك يجب ان يغير شيئاً من مبادئه وقواعده القديمة . وعلى العلم ايضاً ان يتذكر ان العالمَ قد تغير وتبدل ولذلك يجب ان يغير شيئاً من مبادئه وقواعده الماضية . — ذلك ان العدو الحقيقي للدين والعلم ايها السادة انما هو الاثرة والشراهة والرغبة في الانفكاك من كل قيد . او كما يقول بعضهم " اعطاء الفرد مداه لاشباع كل قواه " . وما نتيجة هذا الامر الاّ استعلاء ذوي الفطر الدنيئة على ذوي الفطر السامية اي تغلب صغار النفوس على كبارها لان المواهب السامية والعواطف الكريمة المودعة في النفوس الكبيرة لا تعود نافعة لشيء ما دام الغرض من الحياة التمتع بما فيها من اللذات . وحينئذ يملك في الارض اصاغر سكان الارض اعني الشرهين والحمقى والوقحين والمعتدين والظالمين . وينزوي الاكابر الحقيقيون في زوايا الاهمال يندبون سقوط كل ما هو جميل وجليل . ولا عزاء لهم حتى ولا بحياة اخرى لان اولئك يضحكون منهم ويخبرونهم انها حياة وهمية

" نعم ايها السادة اننا مثلكم نبكي حزناً واسفاً كلما رأينا العلم يؤدي ببعضهم الى هذه النتائج المكروهة . ولكن رحماكم انصفوا ولا تلقوا التبعة في ذلك على العلم بل على الذين اخرجوه هذا المخرج . اي على النفوس التي استنتجت منه هذه النتيجة القبيحة . ان العلم

„ كندى السماء . ولا يبقى الندى نقياً الاَّ اذا وُضع في اناءٍ نقي „ . فالنفوس التي تُخرج العلم المقدَّس ذلك المخرج ليست بنفوس نقيَّة ولذلك يفسد العلم فيها . فقبل لومكم العلم لوموا الفطرة الطبيعية الدنيئة

„ ثم هل تظنون ان العلم وحده يُنتج نتائج كهذه النتائج . كلا . فان تعليمكم الدين بالطريقة التي تعلمونه بها يُنتج مثلها ايضاً . فانكم تعلمون مبادىء وقواعد قديمة لم تعد العقول تقبلها في عصر كهذا العصر . وتطلبون تدبير الحاضر بالماضي . وتقولون ان الناس لا يمكنهم فهم الكتب الا بواسطتكم ولذلك تفسرونها وتضعون رايكم في هذا التفسير في موضع الحقيقة الثابتة التي لا يجوز مسّها بدل ان تتركوا الناس يفهمونها كما تسوقهم فطرتهم . فكم من نفس ساذجة كريمة تفهم مع سذاجتها تلك الكتب بالروح اكثر مما تفهمونها انتم . بل هي تصنع افضل من هذا فانها لا تفهمها فقط بل تعمل بها ايضاً وهذا فضل لها عظيم عليكم يا من تكتفون بالقول دون الفعل . فلماذا تجعلون انفسكم بين الله والناس في منزلة الوسيط والمدافع عن الدين اي عن الضمير البشري . من اقامكم وسطاء ومدافعين عن هذا الضمير . دعوا البشر يعيشون بملء حريتهم الروحية . فان كتبهم الدينية بين ايديهم . وضمائرهم اذا لم تُفسدوها بالجدل والمماحكة والاهواء فانها لا تقراء فيها الا الحقائق الازلية ومبادىء الاخاء البشري . ولا تقولوا نحن نرشدهم . فانكم بشر مثلهم . اي فيكم جميع اهواء البشر الصالحة والفاسدة . وهذا الارشاد لا يقبله البشر الا من الملائكة . ويوم تصيرون ملائكة مجردين من كل ضروب الشقاء البشري فاعلموا اننا نحن نسعى اليكم من غير ان تأتوا الينا ونطلب مساعدتكم . فدعونا ولا تقفوا بيننا وبين الله لتجبرونا على ان نفهم حياتنا وكتبنا والهنا ومصالحنا كما تريدون انتم : فان ذلك الضغط يجرنا الى الكفر بكل شيءٍ

„ ثم هل انتم تكتفون بذلك ؟ كلا : فانكم لا تنفكون عن محاربة بعضكم بعضاً . فهذا المذهب يكفّر ذاك وذاك هذا الى ما شاء الله . والاقبح من ذلك الحرب بين الاديان اي بين دين ودين لا بين مذهب ومذهب فقط . فان الذين مصلحتهم قائمة بتكدير الاخاء بين البشر واثارة التعصب في نفوس اهل السذاجة (ولولا ذلك لم يكن ثمت موجب لوجودهم ولا معنى له) لا ينفكون عن النداء ان دين اولئك باطل لاحتوائه على كذا وكذا فيجيبهم غلاة هذا الدين بل دينكم الباطل لاحتوائه على كذا وكذا . وفي اثناء ذلك يكون رجل ثالث واقفاً بعيداً عن الفريقين يسمعهما . فلما يرى الفريقين في سكرة من الجنون والحماقة الى هذا الحد . لما يرى انه لا غرض لهما من هذا الطعن غير التدجيل والشعوذة „ لملء الخزانة واشباع

الحزانة ،، كما قال الزمخشري في بعضهم على افتراض ان هذا التدجيل يجوز على عقول اهل السذاجة ـ فانه حينئذ يهبُّ من مكمنه و يقول للفريقين : ان رمتما الحق فكلا كما في ضلال . وليس هنالك دين صحيح غير ديني . فيسالانه : وما هو دينك ؟ فيجيبهما ،، ديني ان افعل ما اريد كما اريد وقتما اريد . وما بقي فاوهام وخزعبلات حاكتها التصورات والخيالات وهدمتها كل الفلسفات ،، ـ وهكذا يكون تكفير الناس بعضهم بعضاً في عصر كهذا العصر مؤدياً على خط مستقيم الى هدم جميع الاديان على السواء . وليست التبعة في ذلك واقعة فقط على الغلاة من اهل العلم والفلسفة بل هي واقعة ايضاً على الغلاة من اهل الاديان في اي دين كان .

،، من اجل هذا طلبنا منكم التساهل والاعتدال وترك الصراع والنزاع . ان مبادئكم ـ كتلك الفتاة التي كانت جاثية بخشوع على البلاط تصلي في اثناء هياج الخطيب المصارع ـ لا تؤثر تأثيراً حقيقياً الا بالتسليم لرحمة الله والهدوء والاقناع . فكونوا هادئين ومخلصين مقنعين ومقتنعين . . . واعلموا ان الوفاق في بلادنا بين عناصرنا لا يمكن الا بمراعاة الوَسط الجديد الذي صرنا فيه لان الوَسطَ الماضي قد تغيرَّ علمياً ودينياً واجتماعياً وسياسياً . وهذا الوَسط لا بدَّ ان تجتمع فيه جميع المذاهب والآراء والمبادىء والافكار . وبناءً على ذلك لا سبيل لدوام الوفاق بين الجميع الا باطلاق الحرية المطلقة لجميع تلك المذاهب والآراء والمبادىء والافكار من اي نوع كانت . وهي من تلقاء نفسها متى تُركت لذاتها ولم يكن هنالك شهوة دنيئة تحرِّكها تتفق وتتجه الى غرض واحد وهو الخير اي محاربة الرذيلة والشناعة والفظاعة والشرور في الارض من اي مصدر وردت وباي صورة كانت . و بعد حين لا يبقى منها الا الافضل ،، لان الافضل ينسخ بما هو افضل منه ،، كما قال ابن رشيد . ونحن نقبل هذا الافضل في اي جانب كان ومن اي مصدر كان .

ولا تقولوا ان اقوالي هذه تهدم آمالكم القديمة واحلامكم الجميلة . كلا . فانه لا حلم ولا أمل اجمل من رفع الجنس البشري وانهاض الشعوب . فاصرفوا هممكم لا الى تحريك التعصب في صدور الشعوب ولا الى طلب المستحيل بل الى خدمة الشعب خدمة حقيقية . ويتم ذلك بانارة عقول ابنائه ـ دون سيطرة عليها ـ ومساعدتهم في حياتهم وتعزيتهم في مصائبهم وذلك بالفعل لا بالقول فقط . فان القول لم يعد يؤثر شيئاً والقدوة خير المعلّمين . فاحملوا اذا لواء الفقر والرفق والمحبة والايثار والزهد وامشوا في طليعة جيش الشعب . فانكم لهذا وُجدتم . اما اذا رمتم حمل لواء البذخ في صفوف الحكام والكبراء واصحاب الاعمال

فيكون حينئذ مثلكم مثل ملوك يخلعون انفسهم ويخونون وظيفتهم وينقضون مبادئهم ،،

ولما سكت الشيخ الخطيب علا من صفوف العمال شيء من الجلبة لعدم رضائهم عن هذه الخطبة كل الرضى . واما صفوف اهل المال واهل العلم فانهم صاروا اقل مقاومة مما كانوا. على ان الجميع باتوا ينتظرون الاقتراحات التي اشار اليها الخطيب في اثناء كلامه ليروا منها هل الاتفاق ممكن ام لا . فتناول الرئيس حينئذٍ ورقة ونشرها ثم قال يخاطب الجميع

ايها الابناء

ـ اليكم نص الاقتراحات التي يقترحها مَن احترامه واجب علينا جميعاً وذلك حسماً للنزاع والخلاف . وانني ارجو ان تكون وسيلة لاتفاقكم

(المادة الاولى) تُزاد رواتب العمال والمستخدمين والموظفين ٥٠ في المائة . ولكن هذه آخر زيادة الا للذين تجب مكافأتهم في المستقبل حين الاقتضاء

(المادة الثانية) لا يمكن استخدام احد في ايّ عمل كان باقل من مائة فرنك في الشهر

(المادة الثالثة) ساعات العمل في اليوم ٨ فقط ٤ قبل الظهر و٤ بعده

(المادة الرابعة) اما الاولاد والنساء فانهم يعملون ٦ ساعات فقط لان كثرة العمل تهدم بنية الولد وتمنع النساء من افتقاد منازلهن

(المادة الخامسة) يُنشأ صندوق يُدعى ،، صندوق تقاعد العمال ،، وكلما شاخ عامل او عجز عن العمل لمرض فانه يتناول رزقه الضروري من هذا الصندوق طول عمره

(الماده السادسة) لا يجوز لاصحاب الاعمال ان يستغنوا عن احد من المستخدمين والعمال بحجة قلة العمل او ان يخفضوا اجور بعضهم لاي سبب كان . وعليهم ان يعتبروا جمعيات العملة نائبة عن هؤلاء في كل مخابراتهم

(المادة السابعة) توضع ضريبة على الايراد مقدارها ١٠ في المائة . فمن كان ايراده الف جنيه في العام يدفع ١٠٠ جنيه ومن كان ايراده ١٠ الاف جنيه يدفع ١٠٠٠ جنيه وهلم جراً . وذلك لتخفيف الرسوم والضرائب عن عنق الشعب . ولكن كل من كان ايراده اقل من ٢٠٠ جنيه فان ضريبته تكون ٢ في المائة فقط ومن كان ايراده اقل من ١٠٠ جنيه ١ في المائة . ومن كان ايراده ٥٠ جنيهاً فلا يدفع ضريبة ولا رسماً على الاطلاق

(المادة الثامنة) تتعهد الحكومة بأن تُنشىء في البلاد من اموال الضريبة على الايراد التي تقدم ذكرها مزارع واسعة ومصانع عديدة تشغل بها كل من كان بلا عمل وبان تبني في كل مدينة من المدن الثلاث مستشفيين للمرضى وملجأين للشيوخ والعجزة

ودارين للايتام ودارًا للقطاء

(المادة التاسعة) تتعهد الحكومة ايضًا بان تنشيء للشعب مدارس مجانية يكون فيها التعليم اجباريًا لكل ابناء الامة . ولا يُدرس في هذه المدارس صغراها وكبراها من الاصول الدينية غير المبادىء العمومية التي تقبلها جميع المذاهب »

تلك كانت اقتراحات شيخ العلماء . وقد تغامز اهل المال كثيرًا بينما كان الرئيس يتلوها . ويظهر انه لم يسوُؤهم منها كثيرًا غير وضع الضريبة على الايراد لانها من امهات المسائل . اما العمال واهل العلم فصاروا يتناجون في السر ويتساءلون عن النتيجة . وفي هذا الحين قال الشيخ الرئيس مخاطبًا الجمهور

— لا ارى مانعًا من فض هذا الاجتماع الآن للبحث في هذه الاقتراحات غدًا لانها تقتضي الامعان والمشاورة

الفصل التاسع

وضع الجنون موضع العقل

وخرج الجمع من الحديقة وهم يتباحثون في هذه الاقتراحات . وكان حليم في جملتهم يباحث فيها رفيقه صادقًا ويعرب له عن سروره بنيل الشعب ما لم ينله سواه في باقي البلاد

وقد انقضت تلك الليلة بهدوء وسكينة . لكن لم يطلع الصباح حتى علت ضوضاء شديدة في المدينة . فان السكان انتبهوا على اصوات باعة الجرائد « خيانة خيانة » ففتحوا نوافذهم فوجدوا على الجدران في كل مكان اعلانات حمراء طويلة عنوانها باحرف غليظة

« الشعب المهذّب يخون الشعب المسكين »

وهذا نصّ ذلك الاعلان الغريب

» ايها الاخوة العمال والمستخدَمون

» لقد خانوكم وضحكوا عليكم

» فلا تصدّقوهم

» ولا ترضوا باقتراحاتهم

» اذ لا غرض لهم من هذه الاقتراحات سوى ارجاعكم الى العبودية بالاجرة

» وانتم لا تطلبون الضريبة على الايراد ولا زيادة رواتبكم بل تطلبون مشاركة اصحاب الاعمال في اعمالهم

» فاذا رفضوا هذا الطلب فان من حقوقكم الاستيلاء على المعامل والمزارع والمتاجر والمصانع لانها ملك لكم بحكم الطبع وهو خير من حكم الشرع

» فاستولوا عليها ولا تخافوا فان الجيش معكم

» ايها الاخوة

» هل تعرفون الذين خانوكم

» خانكم اولئك الذين يسمون انفسهم علماء معتدلين ومادروا ان الاعتدال لا يُحصل حقاً ضائعاً

» يقولون انهم اهل العلم وانهم خرجوا من احشاء الشعب ولذلك يرومون خدمته

» فاخبروهم انكم في غنى عن خدمتهم اذا كانت على هذا المثال

» وخير لنا عداوتهم

» انهم اقتدوا برؤساء الدين ومالوا لاصحاب الاموال ترويجاً لمصالحهم واشباعاً لبطونهم

» فقولوا لهم ان خيانتهم مزدوجة . اولاً لانهم يفتخرون بكونهم خرجوا من الشعب وثانياً لانهم تهذبوا ولم يمنعهم تهذيبهم من الخيانة

» فما احطّ ابن الشعب الذي حين ارتقائه لا يصرف همه الا لخيانة ابيه الشعب الفقير المسكين

» وانتم تفضلون ولا شك ارباب الاعمال المتغطرسين عليكم والمقاومين لكم على هؤلاء الاخوة الكاذبين الخائنين

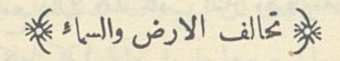
» ايها الاخوة . نحن في غنى عن الجميع . واعتمادنا على انفسنا . فلنجتمع اليوم على ابواب المصانع والمزارع والمتاجر لنناقش اصحابها الحساب ونريهم قوتنا ونبلغهم نهائياً اننا نطلب الموت او مشاركتهم في ارباح اعمالهم

فلما نزل حليم من الفندق وقرأ هذا الاعلان في الشارع احس بقشعريرة تدبُّ في جسده . وقال لرفيقه صادق : ان الموقف حرج والمصير سيّء . ثم ذهب يجول في اسواق المدينة وشوارعها فوجد الاضطراب سائداً فيها . فان اصحاب المعامل والمزارع والمتاجر بعثوا حين وقوفهم على ذلك الاعلان يطلبون من الحكومة جنداً لحراسة مخازنهم ومعاملهم

فجاء الجند وطوقوها تطويقاً . وكان العمال والمستخدمون يتوافدون عليها مئات مئات من كل صوب وهم يصيحون « الاشتراك او الموت » . فلما قربوا منها وشاهدوا الجند حولها ازدادوا حدة وهياجاً وصاروا يصيحون « ايها الجنود نحن وانتم اخوان لاننا جميعاً من ابناء الشعب . فلا تسيئوا الينا » وكانت الجنود تسمعهم وتحول نظرها عنهم اتباعاً لنظامها

ولما حاول بعض العمال الدخول الى المعامل والمخازن حال الجنود بينهم و بين الدخول . فحدثت فتنة بين الفريقين . واتفق في هذا الحين ان اطلق واحد من العمال طلقاً من مسدس كان معه فاصاب كتف احد الجنود . فعمّ الاضطراب في تلك الناحية . وصدر الامر الى الجنود بان تجرد السلاح وتهجم لتفرّق العمّال من غير سفك دم . فهجمت الجنود طاعة لرؤسائها هجمة واحدة . غير ان صفاً واحداً منها كان مؤلفاً من ٥٠ جندياً القى سلاحه وانضمّ الى العملة . فصرخ العملة حينئذ صراخ الابتهاج والفرح . اما رؤساء الجند فعلا وجوههم الاصفرار من هذا التمرد وخافوا ان يحذو باقي الجند حذو هؤلاء المتمردين فيصير الامر للعمال ويُقضى على السلطة القديمة

لكن النظام العسكري كان متأصلاً في نفوس اولئك الجنود بتربية عدة سنين . ولذلك كان اكثرهم يسيرون كالعميان الى حيث يقودهم رؤساهم ولو كان ذلك ضد مصلحتهم . فتمكن الجند في ذلك النهار من تفريق العمّال واعادة النظام . ومع ذلك لم يرضَ الشيخ الرئيس حاكم المدن الثلاث ان يعقد جلسة في تلك الليلة في الحديقة لان الافكار كانت شديدة الحماسة



الفصل العاشر

﴿ تحالف الارض والسماء ﴾

على تاركي مبدإ الرفق والاخاء

ولما اقبل المساء ساد على المدينة سكون تام . فتنفس الحكام واصحاب الاعمال الصعداء واطمأنت نفوسهم قليلاً . وعاد لمدينة المال شيء من منظرها الاعتيادي بعد ذلك الاضطراب . فكان الناس في القهاوي والساحات العمومية جالسين يستنشقون نسيم المساء وهم يتباحثون بهدوء في حوادث النهار

ثم انتصف الليل فاطفأت الانوار في المدينة ونام جميع السكان . وساد سكوت تام حتى لم يعد يُسمع فيها سوى خرير النهر الجاري يسقي المدن الثلاث وصوت الخفاش في طيرانه في الظلام ووقع اقدام الجنود والحراس الذين كانوا يحرسون المدينة في الليل . وكان هؤلاء الحراس يسمعون حيناً بعد حين في ظلمة الليل صوت طائر بعيد فيقول بعضهم لرفاقه : انّ عظامي تنتفض كلما سمعتُ هذا الصوت في الليل في احوال كهذه الاحوال

ذلك ان ذلك الصوت كان صوت البوم المشهور بانه نذير الخراب

وبقيت المدينة نائمة بهدوء واطمئنان تحت جنح الدجى حتى الساعة الثالثة قبل الفجر . ففي هذه الساعة انتشرت في انحاء المدينة انوار مختلفة في جوانبها الاربعة . ثم علا الصياح والصراخ . ثم ارتفع الدخان فسدّ منافس الفضاء . وحينئذ حدث حادث ترتعد له الفرائص وترتجف القلوب . فان المدينة كلها هبت من الرقاد هبة مجنون . وصار الرجال يصرخون والنساء يولولن والاولاد يبكون وينتحبون . ذلك ان لسان النار لعبت في اكثر منازل المدينة خصوصاً في معاملها ومتاجرها ومنازل اصحاب الاعمال فيها . وهجم عليها جماعات كانهم ابالسة خرجوا من الجحيم فصاروا ينهبون و يسلبون . وكان حليم و رفيقه نائمين في فندق من اشهر فنادق المدينة . فلما انتبها وشاهدا النار تاكله اخذا الستائر والسجادات فعملا منها سلماً وتدلّيا عليها الى الارض . ولما باتا في الشوارع ابصرا فيها ما تنفطر له القلوب . ابصرا الانسان بحالته الحيوانية الحقيقية . فان جماعات السلابين النهابين كانوا يهجمون كوحوش ضارية ويكسرون المخازن والحوانيت ويحملون ما فيها . وكانوا يصعدون الى القصور الكبيرة والنار تضطرم فيها و بدل ان ينقذوا النساء والاولاد الذين كانوا يختنقون فيها من الدخان او يحترقون بلهيب النار كانوا يقتلون و ينهبون كل ما وصلتْ اليه ايديهم. اما الجند والمطافيء فماذا تقدر ان تصنع في ثورة عمومية كهذه الثورة . فانه لم يكن في المدينة سوى ١٠ مطافىء ومع ذلك فقد كانت النار مضطرمة في ٥٠٠ منزل . وعن قريب ستتصل الى باقي المنازل فتاكلها كلها

وقد ظن حليم لاول وهلة ان هذا المصاب قد حلّ بمدينة المال وحدها ولكنه لم يلبث ان سمع الصراخ من جهتي مدينة العلم والدين ورأى اللهيب يرتفع من جوانبها . فقال لرفيقه : هذه مؤامرة دبّرها الغلاة المتطرفون ولا شكّ انها نتيجة الاعلان الذي نُشر امس . فسأله رفيقه وما رأيك فيها . فاجاب حليم لو كنت املك الآن مسدساً ومائة خرطوشة لكنت اُظهر لك رأيي فيها . فانني كنت اذهب واحرق ادمغة كل من اراه في طريقي

من هؤلاء الابالسة الذين يقتلون وينهبون . ولا شكّ عندي ان عقلاء العمّال والاشتراكيين انفسهم يأنفون من انزال مبادئهم الى هذه الحمأة من اللصوصية والسفالة . فقال له رفيقه : ولكن الا تظن ان هذا التطرف نتيجة لازمة عن تطرف الفريق الثاني فهمّ حليم ان يجيبه بانه لا يريد ان يعرف عذرًا للسلب والقتل والنهب مهما كان سببه . واذ ارتفع في المدينة صراخ اليأس والاضطراب تمازجه طلقات البارود . فاصغى حليم وسأل ما هذا . ثم علم ان الجنود قد اخذوا كل ما في ثكناتهم من الرصاص وهجموا بقيادة رؤسائهم على جماعات الثائرين يفتكون بهم فتكاً ذريعاً . فدارت بين الفريقين رحى حرب حقيقية سالت بها الدماء وكان لتلك الدماء على اشعة النيران المتقدة حولها بين حشرجة القتلى وولولة النساء وصراخ الرجال منظر مريع

وكان حليم يُسرح نظره من بعيد في المشاهد الفظيعة التي كان يراها امامه وهو مشتغل البال بها لا يقدر على ردّ شيء منها ومضطرب الفكر لما عسى ان يكون قد جرى للفتاة العزيزة التي شاهدها في البستان عند « قرية الدخول » وكان يفكر بها . لكنه بعد برهة سمع هديرًا عظيماً قريباً فعلم انه صوت انهدام القصور المحترقة . ثم سمع اصوات القتل والبنادق اقرب منه مما كانت . فرأى ان يخرج من المدينة فرارًا من البلاء ما دام لا يقدر ان يرده . فاخذ رفيقه وخرج معه من المدينة بنفس متالمة اشد الم وقصدا اكمة قريبة مشرفة على المدن الثلاث وكانت مغروسة اشجارًا يتفيأ السكان ظلها في حر الهجير . فشاهدا منها مشهدًا جميلاً مريعاً . فان السنة النار كانت تندلع في المدن الثلاث فتنير الافق بنور تخالطه سحب من الدخان القاتم تحت سماء مستترة بالغيوم السوداء — كأنّ السماء خجلت من ان تشاهد فظائع البشر في الارض في تلك الساعة . وكانت اصوات القتال تردُ من المدن الثلاث في صفاء ذلك الليل فتزيد ذلك المنظر رهبة وفظاعة

ولكن يظهر ان السماء كرهت ان تبقى واقفة لدى هذه الفظائع الارضية وقفة المتفرّج المشاهد زمناً طويلاً . نعم ان صبرها طويل ولكن لكل شيء حداً . ولذلك تناول جوبيتير اقوى صواعقه وارسلها في الفضاء . فلعلع الرعد فوق تلك المدن الثلاث كانذار وتهديد للارض من السماء ان تسكن وتهدأ والا اخربتها . ولكن اهل الارض لم يسمعوا هذا الانذار لان اصوات البارود وصراخ القاتلين والمقتولين كانت تصمّ اذانهم . فحدث حينئذ ما زاد تلك المناظر رهبة وفظاعة . فان زوبعة هائلة هبت على السهل الذي كانت فيه المدن الثلاث وصارت تكنس كل ما في طريقها . وزأرت الريح وقصفت الرعود ومدت التنانين

خراطيمها من السحاب وهطل المطر كافواه القرب . وكأنَّ الارض خشيت من السماء قبل البشر ولذلك اهتزّت تحت المدن الثلاث بزلزلة شديدة . وهكذا تحالف على المدن الثلاث التعيسة النار والقتل والصواعق والزوابع والزلازل . كأنَّ السماء تخلت عنها وقضت عليها قضاءً نهائياً

وكان حليم في ذلك الحين جالساً مع رفيقه تحت شجرة والمطر قد بلل ثيابهما . ومع ذلك فقد كانا ينظران باهتمام الى تلك المدن و ينتظران طلوع الفجر . فلما طلع الفجر وصار في امكانهما ان يلمحا المدن لم يشاهدا فيها — واسفاه — سوى خرائب واكوام سوداء ينبعث الدخان عنها

فصاح حليم حينئذ : واحرباه . اهكذا خربت سدوم وعمورة وبابل ونينوى في القرون الماضية ؟

ولما لفظ حليم هذه العبارة وقع نظره على فرسان قادمين من جهة مدينة المال . فلبث يحدق في جهتهم حتى انكشفوا له وكان الفجر قد زاد اشراقاً . فدبّت حينئذ في نفس حليم قشعريرة شديدة . ذلك ان هؤلاء الفرسان كانوا خمس فتيات وهن هن اللواتي شاهدهن في البستان قرب قرية الدخول . وكانت حسناؤه صاحبة الحلة البيضاء راكبة في وسطهن كما كانت هناك . فصاح حليم برفيقه : ماذا نصنع الآن . اترى هؤلاء الفتيات بقية من بقي من سكان المدن الثلاث فجئن يلجأن الى هذه الاكمة فراراً من الزلازل والنار . عزيزي صادق ماذا نصنع . الا تظنُّ انهن يجفلن ويخفن منا اذا شاهدننا هنا

و بعد برهة دنت الفتيات على افراسهن . وكان في يد كل واحدة منهنَّ منديل تمسح به دموعها من حين الى حين وهنَّ بلباس النوم . وكانت وجوههن صفراء كوجوه الموتى . فلما وقع نظر حليم على هذه الوجوه وتلك الدموع لم يتمالك ان بكى ملء عينيه . وقال في نفسه . ان الابالسة والشياطين حين اتيانهم الشر في الارض لا يفتكرون ان شرهم لا يقع اشد اذاه الا على اللواتي هنَّ اقل تحملاً له

ولما صعدت الفتيات الى الاكمة وشاهدن فيها بشراً اغرقن في البكاء . وصرن لا يرفعن مناديلهن عن عيونهنَّ الا للنظر الى المدن وما صارت اليه . فاين بكاء ارميا على انقاض « ابنة صهيون » من بكاء هؤلاء العذارى على وطنهنَّ المحبوب . لقد فقدن — بفقده — كل شيء . لقد خرجن منه كما يخرج السيف من غمده . فالاهل والمال والمنزل والصداقة ورغد العيش والوطن والعائلة والآمال — كل هذه ذهبت في ليلة واحدة ولم يبقَ في

مكانها غير اكوام الفحم والحجارة واشلاء القتلى ورائحة الدماء والدخان . فيا ايتها السماء لماذا كنت قاسية الى هذا الحد . يا ايها الخالق الحكيم ليتك كنت اكثر رحمة واشد رأفة . لانه اذا استأ هل كل اولئك العتاة القساة عقابك فهؤلاء الضعيفات الطاهرات الرقيقات — والوف غيرهن — لا يستأهلنه

وكان حليم في تلك الاثناء منزوياً مع رفيقه وقلبه يتقطع حزناً واسفاً . وبعد برهة تقدم وهو يبكي لبكاء الفتيات التعيسات وقال مخاطباً حسناءه وكان يظهر انها اكبرهن سناً وارشدهن رأياً

— هل تسمح سيدتي في حين كهذا الحين ان اعرض عليها وعلى رفيقاتها خدمتي

وكان حليم قد خاطب حسناءه بقلب خلا في تلك الساعة من الحب لان عاطفة الحب قد غرقت حينئذ في عاطفة الحزن والشفقة والرأفة . وهذا شان القلوب الكريمة : ذلك لان عاطفة الحب اكثرها مصوغ من عاطفة محبة الذات واما عاطفة الحزن والشفقة والرافة فاكثرها مصوغ من محبة الغير . والقلب الكريم في ساعة كهذه الساعة يفتكر بغيره لا بذاته

فاشتد بكاء الفتيات عند سؤال حليم واجابته فتاته

— عفواً يا سيدي . ماذا تقدران تعمل . ان ابانا حاكم المدينة كان اول القتلى ومنزلنا كان اول المنازل المحروقة . ولولا مساعدة الجند الذين كانوا نياماً في دارنا لما نجا منا احد . بل كان حل بنا ما حل بباقي السكان الذين مات نصفهم بالسيف والنار والرصاص ونصفهم بالزوابع والزلازل . فكل ما نطلبه منك هو ان تصلي الى الله معنا ان يرحمنا ويعزينا

ورغبة من حليم في ان يروح هموم الفتاة قليلاً ويشغل فكرها عنها ولو دقيقة سألها

— ولكن ما الذي دعا الى هذه الفاجعة الهائلة يا سيدتي بعد ما رايناه من سكينة الاحزاب

فاجابت الفتاة والدموع ملء عينيها

— انني انقل لك يا سيدي السبب الذي ذكره لي ابي امس قبل دخولي الى غرفة النوم . فانه اخذ يدي بين يديه وقال لي : اتعرفين سبب كل هذه القبائح يا بنية . سببها الشراهة والاثرة والطمع . ولست ابرىء منها حزباً دون حزب . لان التبعة واقعة على الجميع . ولا استغرب ان تخسف بنا الارض او تنقض علينا صواعق السماء ما دمنا بعيدين الى هذا الحد عن مبداء الرفق والاخاء .

الخاتمة

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً استطاع بعد ذلك تعزية فتاته بعض التعزية . وبما انها كانت مع شقيقاتها وارثات المدن الثلاث وما يتبعها من السهول فانها تولت اعادة بناء هذه المدن لتقيم فيها هيئة مبنية على « الرفق والاخاء » تكفيراً عن سيئات المعيشة القديمة . وقد اختارت حليماً زوجاً لها واصاد فازوجاً لاحدى شقيقاتها ثم زوجت شقيقاتها الثلاث الاخربات ثلاثة شبان من اصدقاء حليم وعاشوا جميعاً في تلك الاماكن مع نسلهم وعمالهم ونسل عمالهم معيشة يحسدهم عليها اهل العصر الذهبي . ولا نعلم هل نتمكن يوماً من الايام من وصف هذه المعيشة الفردوسية التي لم تر الارض مثلها قبلها كما وصفنا معيشة المدن الثلاث القديمة . اما الآن فنكتفي بان نقول بان حبيبة حليم لم تنس ان تقيم ثلاثة آثار في ثلاثة اماكن على سبيل التذكار : المكان الاول البستان الذي شاهدت فيه حليماً اول مرة عند قرية الدسول . والمكان الثاني الاكمة التي وجدته عليها يوم خراب المدن الثلاث . والمكان الثالث الدار التي قتل بها ابوها الشيخ الرئيس

تمت

اغلاط مطبعية

وقعت بعض اغلاط مطبعية في الكتاب . منها في الصفحة ٢ « اقام لها فيه » وصوابه « اقام له فيها » وفي الصفحة ٥ « كما يغمضها » وصوابه « كما يغمضهما » وفي الصفحة ٩ « سعداء بعلمهم » وصوابه « سعداء بمالهم » وفيها ايضاً في سطرين اسم « جميل » وصوابه حليم . وكذلك في الصفحتين التاليتين في ثلاثة مواضع . ومنها في الصفحة ١٧ « قد بدا » وصوابه « قد بدأ » وفي الصفحة ٤١ ,, ابن رشيد ،، وصوابه ,, ابن رشد ،، وفي الصفحة ٤٢ السطر ٣ ,, اهل العلم ،، وصوابه ,, اهل الدين ،، وفي الصفحة ٤٧ ,, تضم آذانهم ،، وصوابه ,, تصم آذانهم ،، وغيرها مما لا يفوت ذكاء القارىء